العنوان:	آل محمد بيت الرئاسة في عشائر شمر الجربا : دراسة في الزعامة العشائرية العراقية في القرن التاسع عشر
المصدر:	المجلة التاريخية المصرية
الناشر:	الجمعية التاريخية المصرية
المؤلف الرئيسي:	نوار، عبدالعزيز سليمان
المجلد/العدد:	مج 15
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1969
الصفحات:	109 - 161
رقم MD:	499006
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	تاريخ العراق، القبائل العربية، عشائر شمر الجربا
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/499006

آل محمد
بيت الرئاسة فى عشائر شمر الجربا

دراسة فى الزعامة العشائرية العراقية فى القرن التاسع عشر

دكتور عبد العزيز سليمان نوار

قد يتبادر إلى الذهن أن دراسة تاريخية لعشيرة عربية بدوية لن تخرج عن تسجيل منازعاتها مع الحكومة ومع العشائر الأخرى . ولكن هناك بعض العشائر العربية ذات تاريخ حافل يتضمن المجالات المحلية والدولية على السواء ، وعشائر شمر الجربا[1] العراقية من هذه العشائر التى يكشف لنا تاريخها عن تفصيلات دقيقة لما كان يجرى داخل العشيرة نفسها ، وعما كان يحدث بينها وبين العشائر الأخرى من صراع وتحالف ، ويكشف لنا تاريخها أيضاً عن تجربة خطيرة وهى هجرتها من شبة الجزيرة العربية إلى العراق وما تبع ذلك من جهود مضنية لتثبيت أقدامها فى مواقعها الجديدة . كذلك يكشف لنا تاريخ عشائر شمر الجربا عن نوع من العلاقات الدولية فى منطقة المشرق العربى . فلقد اصطدمت هذه العشائر بعنف بحركة الموحدين (الحركة الوهابية) فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكافحت الغزو الإيرانى للعراق فى العشرينات من القرن التاسع عشر ، كما تعاونت مع القيادة المصرية فى الشام (١٨٣١ — ١٨٣٤) . وإلى جانب هذا وذاك كانت السلطات الإنجليزية المسئولة عن مصالح إنجلترا فى العراق تولى عشائر شمر الجربا عناية خاصة لأنها كانت تسيطر على جزء هام من خطوط المواصلات العالمية التى كانت تربط بين الشرق والغرب عبر العراق .

وخلال دراستنا لهذه العشائر سنلقى نظرات على الظروف التى أدت إلى هجرة عشائر الجربا من شبه الجزيرة العربية إلى العراق ثم سنركز بعض الأضواء على

---

(١) سميت شمر لأن رجالها كانوا يشمرون عن ساعد الجد خلال الأزمات ، أما الجربا فلقب لقسم من هذه العشيرة التى تضاربت بشأنه الروايات .

الشخصيات الهامة من « آل محمد » وهو البيت الحاكم فى تلك العشائر لما كان لها من آثار واضحة فى توجيه أمور العراق خلال القرن التاسع عشر .

كان العراق قبل الفتح الإسلامى مهجراً لبعض القبائل العربية ، وقد تغلغل بعضها داخل العراق بينما أقام البعض الآخر على تخومه ، حتى إذا ما فتح المسلمون العراق تحولت معظم تلك العشائر إلى الإسلام وتوالت بعد ذلك الهجرات العربية حتى أصبح العراق على جانب كبير من التكامل من حيث العروبة والإسلام . ومنذ ذلك الوقت أصبحت العشائر العربية تغطى مساحات واسعة فى العراق . ولقد كان للعشائر العربية فضل كبير فى أن يحتفظ العراق بطابعه العربى حتى الآن . فالمعروف أن العراق كان أكثر البلاد العربية تعرضاً لموجات متتالية من الغزوات والهجرات غير العربية التى كادت أن تغير من ملامحه العربية ، لولا أن توافدت مجموعات من العشائر العربية على العراق بصورة تكاد تكون مستمرة . ولكن نلاحظ — من ناحية أخرى — أن العرب بعد سقوط الدولة الأموية فقدوا الكثير من صفات الزعامة والتفوق خاصة فى النصف الثانى من العهد العباسى . فلقد احتكر الفرس والترك الحكم والإدارة خلال ذلك العهد ثم سقط العراق فى قبضة المغول فى ١٢٥٨م الذين قضوا على الخلافة العباسية هناك .

ولفترة طويلة عاش العراق تحت حكم المغول الايلخانيين ثم (القره قوينلو والآق قوينلو ومن بعدهم استولى الفرس الصفويون على العراق فى ١٥٠٨ وظل فى قبضتهم حتى انتزعه منهم الأتراك العثمانيون فى ١٥٣٤ ثم استولى عليه الفرس مرة أخرى فى ١٦٢١م ولم يسترده الأتراك العثمانيون إلا فى ١٦٣٨م ومنذ ذلك التاريخ ظل العراق فى إطار الدولة العثمانية تارة تحت الحكم المباشر (١٦٣٨ — ١٧٤٩) ومن (١٨٣١ — ١٩١٤) ، وتارة أخرى تحت حكم عصبيات حاكمة من أشهرها مماليك بغداد (١٧٤٩ — ١٨٣١) وآل عبد الجليل فى الموصل[1] وآل آفر أسياب فى البصرة[2] والأسرات الكردية العديدة[3] التى قويت شوكتها خلال القرن

---

(١) حكمت هذه الأسرة فى الموصل من أوائل القرن الثامن عشر حتى حوالى ١٨٣٤م .

(٢) حكمت هذه الأسرة البصرة من ١٥٩٥ إلى ١٦٦٢ .

(٣) من أهمها الأسرة البابانية فى السليمانية والصورانية فى راوندوز .

السابع عشر . ولكن استطاعت الحكومة أن تصفيها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر[١] ولعل تقسيم العثمانيين للعراق إلى أربع ولايات كبرى : بغداد — البصرة — الموصل وشهر زور (كردستان) كان من العوامل الرئيسية التى قوت من جانب هذه العصبيات المحلية ، ولكنها مع هذا كانت لا تفكر فى الانفصال الكامل عن دولة الخلافة العثمانية رغم المعارك الدموية التى كانت تقع بين تلك الإمارات من جهة وجيوش السلطان من جهة أخرى .

ونظرة سريعة على تاريخ العراق تؤكد لنا أن العراق عاش معظم الفترة الواقعة بين سقوط الخلافة العباسية والاحتلال الإنجليزى له خلال الحرب العالمية الأولى تحت حكومات غير عربية حجبت عن العرب المناصب القيادية الكبرى . فزادت أحوال العرب تقهقراً كما زادت سرعة انحدارهم نحو تقاليد الجاهلية الأولى ولم يعصمها من العودة الكاملة إلى تلك الجاهلية الأولى سوى احتفاظها بالاسلام ديناً وبالعروبة كياناً ولقد ظلت تلك العشائر معتزة بعروبتها رغم التفوق الحضارى الذى كان لدى الفرس والترك . وكان لهذا الاعتزاز بالعروبة قيمة كبرى فى الحفاظ على العراق عربياً حتى الآن .

وفى الغالب كانت العشائر العربية فى العراق خصوصاً النازلة قرب نهر الفرات على اتصال بأصولها فى شبه الجزيرة العربية . فكانت عشائر بادية العراق تمثل حلقة بين العشائر العربية التى استقرت فى ريف العراق والعشائر البدوية فى شبه الجزيرة العربية . وكانت هجرة العشائر العربية من شبه الجزيرة العربية تقع فى فترات متطاولة فكانت تملأ الفراغ الذى كان يحدث فى العراق بسبب الاحتياجات المخربة ، أو الحروب المدمرة ، أو بسبب الأوبئة التى كانت تقضى على أعداد كبيرة من سكان العراق . وكانت بعض عشائر شمر من بين العشائر العديدة التى هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى العراق منذ القرن السابع عشر الميلادى . فتحدثنا المراجع عن مصادمات عديدة بين شمر وولاة بغداد العثمانيين فى ١٦٩٥/١٧٠٦ . وقد دخلت شمر فى حلف مع عدد من كبريات عشائر العراق مثل المنتفق والخزاعل وزبيد

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث . دار الكاتب العربى . القاهرة ١٩٦٨ (الفصل الثالث عبارة عن دراسة للظروف التى أدت إلى تصفيتها) .

ضد حسن باشا والى بغداد (١٧٠٤ — ١٧٢٣)[١]. ودارت معارك عنيفة جداً بين الطرفين استطاع خلالها حسن باشا أن يثبت تفوقه العسكرى على تلك العشائر[٢] ولم نسمع عن تمردات لعشائر شمر حتى توفى حسن باشا فى ١٧٢٣ . فتجددت تمرداتها[٣] فى وقت كان فيه نادرشاه يغزو العراق ، الأمر الذى شغل أحمد باشا (والى بغداد ١٧٢٣ — ١٧٤٧) عن الالتفاف إلى إخماد تمردات شمر . ولا شك أن شمر بتمرداتها هذه لم تقدر خطورة عملها على مستقبل العراق فى تلك الظروف ، ومن ناحية أخرى فإننا نعتقد أن كراهية شمر للأتراك العثمانيين حكام العراق كانت على قدر المساواة مع كراهيتهم للفرس (الطامعين فى السيطرة على العراق) . فلقد كان هدف هذه العشائر هو التخلص من أى حكم أعجمى وتخليص نفسها من الالتزامات التى كانت تفرضها الحكومة على العشائر .

كانت شمر — شأنها شأن العشائر الكبرى — عرضة لأن تنفصل عنها بعض أجزائها كلما تزايدت أعدادها أو طرأت ظروف سياسية أو اقتصادية تدعو إلى انفصال جزء منها عن جسم العشيرة . ولقد انقسمت شمر فعلا إلى أقسام عديدة استطاع بعضها أن يستقر فى مناطق محددة مثل « شمر طوقة » التى استقرت فى ريف العراق ، كما أن بعضها ظل متنقلا على عادة العشائر البدوية مثل « شمر الجربا » التى كانت من أشد تلك العشائر بداوة . ورغم بداوتها الشديدة هذه فقد لعبت شمر الجربا دوراً كبيراً فى تاريخ شبه الجزيرة العربية وفى تاريخ العراق .

ومما لا شك فيه أن الزعامات تلعب دوراً رئيسياً فى توجيه تاريخ المجتمعات العشائرية . وهذا ما نلاحظه عند تتبع العشائر بصفة عامة أو شمر الجربا بصفة خاصة ولقد كان من المألوف أن يكون هناك « بيت » معين يخرج منه شيوخ العشيرة ، وهو ما يعرف باسم « بيت الرئاسة » . وكان « آل محمد » هم بيت الرئاسة فى

---

(١) كان حسن باشا من الوجهة الرسمية والياً على بغداد ولكن امتدت سطوته إلى معظم العراق وهو الذى كوّن جيشاً من المماليك الذين استطاعوا الاستبداد بالحكم بعد وفاة أحمد باشا ابن حسن باشا فى ١٧٤٧ واستمروا فى الحكم إلى ١٨٣١ م .

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٥٣ ج ٥ ، ص ١٣٩ / ١٦٩ / ١٧٧ — ١٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٤—٢١٥ .

شمر الجربا . ولقد كان لهذا البيت تاريخ حافل عندما وقفت شبه الجزيرة العربية عند مفترق الطرق بعد اشتداد حركة الموحدين (الحركة الوهابية) بزعامة آل سعود الذين جعلوا من هذه الحركة تياراً جارفاً . فقد دعا الموحدون العشائر إلى نبذ التقاليد البدوية الجاهلية . وكان من لا يقبل تلك المبادىء يعتبر — فى نظرهم — كمن كفر بالإسلام . وكان من أهم الموضوعات التى كان من المستحيل أن يلتقى عندها الطرفان موضوع «الغزو»[1] فقد كان من عادة العشائر العربية أن تقوم بغزو العشائر الأخرى وكان شباب العشائر يفخرون بتلك العمليات العدوانية ، بل إن « الغزو » كان كفيلا بأن يعيد العشائر العربية إلى ما كانت عليه من صراع بدائى اشتهرت به قبل الإسلام . ومن ثم كان الغزو يتنافى مع فكرة الدولة الإسلامية ، كما كان يتنافى مع الإستقرار والأمن اللذين هما مفتاح التقدم والتطور ، ولكن فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كان من المستبعد أن تنبذ العشائر فكرة الغزو ، حيث أن تلك العشائر ظلت قرون طويلة وهى تمارس هذه التقاليد البدائية وتعتز بها ولهذا كان من العسير على عشائر بدوية — مثل شمر الجربا — أن تقبل عن طيب خاطر الأفكار والمبادىء التى دعا إليها الموحدون وعلى رأسها الكف عن « الغزو » .

ولهذا كان لابد من وقوع صراع دموى مرير بين عشائر شمر والموحدين ، وكان على رأس هذه العشائر حينذاك « مطلق بن محمد » بينما كان سعود بن عبد العزيز على رأس الموحدين . وكل منهما كان صعب المراس . وأصبح على « مطلق بن محمد » أن يتخذ طريقاً من الطرق الثلاثة التالية :

١ — أن يقاتل حتى ينتصر على آل سعود ، ولكن بينما كان القتال ضرورة ملحة كان النصر بعيد الاحتمال أمام شمر الجربا لأن هذه العشائر لم تكن قادرة على الصمود فى وجه حركة الموحدين أو حتى خفض شوكتها ، لافتقار العشائر الشمرية إلى الفكرة العقائدية وإلى التنظيم الذى اشتهر به الموحدون فى أيامهم الأولى .

٢ — أن يقبل « مطلق بن محمد » خضوع عشائره للموحدين ولكن هذه العشائر الشمرية كانت شديدة البداوة ترفض الخضوع بإباء وشمم .

---

(١) عباس العزاوى : عشائر العراق ، ج ١ ، ص ٧٢ .

٣ — أن تغادر عشائر شمر الجربا نجداً بعيداً عن متناول سيوف الوحدين ، وهذا قرار ليس من اليسير على شيخ العشيرة أن يتخذه إلا تحت ظروف قاسية .

جرب « مطلق بن محمد » القتال (١٧٩١) فإذا بتيار الوحدين جارفاً ، ولما يتقن « مطلق » أن الإحتكام إلى السيف سيعود عليه بالخسران آثران يجمع جموعه مولياً وجهة شطر العراق الذى كان مهجراً طيباً حيث كانت فيه عشائر عديدة شمرية سبقت « الجربا » إليه[١].

ومما ساعد على اتجاه « مطلق بن محمد » إلى العراق ، أن الماليك — حكام العراق — كانوا يرحبون بقدوم مثل هذه العشائر وذلك لكي يستخدمها الماليك فى صد هجمات الوحدين على العراق وأيضاً فى شن حملات على الوحدين فى قلب شبه الجزيرة العربية ، إذ أن جيش الماليك كان مؤلفاً من الفرسان الثقيلي العدة والعتاد ، ولم يكن مثل هؤلاء الفرسان بقادرين على التصدى لقوات الوحدين الخفيفة الحركة . هذا فضلا عن أنه لم يكن فى استطاعة الفارس المملوكى أن يحارب فى الصحراء . لحرب الصحراء وقتال العشائر له أسلوبه الخاص . ومن ثم كانت العشائر هى خير سلاح يمكن إستخدامه ضد الوحدين ، وبخاصة إذا كانت تلك العشائر موتورة منهم .

ومن ناحية أخرى ، كان والى العراق (سليمان باشا الكبير)[١] يعد العدة لشن حملة كبيرة ضد الوحدين فى قلب شبه الجزيرة العربية ، حيث أن سليم الثالث — السلطان العثمانى — كان يلح عليه فى إرسال حملة كبيرة ضدهم . وكان اشتراك عشائر شمر الجربا فى مثل هذه الحملة ضد الوحدين يعطى فرصاً أوسع لنجاحها ، لما كان لتلك العشائر من خبرات فى قتالهم . فضلا عن أنها كانت كبيرة العدد وشديدة الكراهية للوحدين وتبحث عن فرصة لتثأر لنفسها منهم[٢] ، وفعلا اشتركت شمر الجربا فى الحملة الكبيرة التى أعدها سليمان باشا الكبير والتى تولى كتخداه « على بك » قيادتها ، وكانت تضم قوات مملوكية إلى جانب القوات العشائرية .

---

(١) عباس العزاوى : عشائر العراق ، بغداد جـ١ ، ص ١٣٨ — ١٤٠ .

(٢) حكم من ١٧٧٩ — ١٨٠٢ .

(٣) عباس العزاوى ، عشائر العراق ، جـ١ ، ص ١٣٧ ، ١٤٤ .

زحفت الحملة من العراق إلى الإحساء ، وهناك تصدت لها قوات الموحدين ، فدارت معركة حامية سرعان ما تحولت إلى هزيمة قاسية كادت أن تصبح مذبحة لولا ثبات قوات العشائر . وخلال هـــذه المعركة سقط « مطلق بن محمد » قتيلا عام (١٨٩٨/١٢١٣) واضطرت بقايا قوات الحملة إلى التقهقر من الإحساء إلى العراق[١] .

لقد كانت الضربة التى وجهها الموحدون إلى شمر الجربا قاسية وأصبحت العشيرة فى حاجة إلى زعامة قوية تأخذ بيدها فى هذه المحنة . وكان فى العراق حينذاك شخصية شمرية ذات نفوذ ، ونعنى بذلك « ابراهيم بك الشمرى » الذى آل على نفسه أن يعيد إلى العشيرة قوتها وتماسكها ، ووجد « إبراهيم بك الشمرى » فى الشيخ « فارس » من « آل محمد »[٢] القائد الذى يستطيع أن يتحمل المسئولية بعد مصرع « مطلق ابن محمد » .

كان « الشيخ فارس » فى نجد حينذاك ، فاستقدمه « إبراهيم الشمرى » إلى العراق فلبى الشيخ النداء ، وشد رحاله إلى هناك وتولى مشيخة شمر الجربا[٣] ، وكان طبيعياً أن يكرس جهوده فى تقوية مكانة عشائره عن طريق التعاون مع القوى المناهضة للموحدين أشد أعداء شمر الجربا ، وكانت حكومة العراق تعد حينذاك قوات لتوجيه ضربات إلى العشائر التى تعاونت أو مالت إلى الموحدين[٤] ، ولهذا وضع « فارس » سيفه فى خدمة هذا الغرض ، كما شارك فى الحملة الجديدة التى كانت تعدها

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، تاريخ العراق ، جـ٦ ، ص ١٢٥ ؛ لقد كان مطلق بن محمد عنيداً فى كراهيته للموحدين فيقول صاحب مطالع السعود أنه سار من العراق إلى الشام وتوجه إلى أحمد باشا الجزار يحج ، وبعد رجوعه من الحج « رأى ذلك الضلال المبين الذين كان عليه الوهابيون . . . رجع وقد عاهد الله على أن لا يرجع عن الجهاد والقتال مع الوهابيين إلى أن يموت » انظر مختصر مطالع السعود ، ٢٤ .

(٢) البيت الحاكم فى شمر الجربا .

(٣) عباس العزاوى ، عشائر العراق ، جـ١ ، ص ١٤٤ .

(٤) مثل عشائر العبيد التى كانت من كبريات عشائر العراق .

الحكومة ضد الوحدين (١٧٩٨ م)[١] .

ولكن هذه الحملة الجديدة لم تستطع إحراز نصر ما على الوحدين ، بل توالى تفوق الوحدين على الحملات الموجهة ضدهم من العراق ، مما أدى إلى أن يتوسع الوحدون فى نطاق عملياتهم فشرعوا فى مهاجمة العشائر النازلة غربى نهر الفرات وبلغت تلك الحملات ذروة قوتها عندما هاجم الوحدون مدينة كربلاء (١٨٠١) ونهبوها وخربوا مرقد الإمام الحسين بن على وامتدت أيديهم إلى مساكن الدينة ، وأدى ذلك إلى إرتفاع هذه المشكلة إلى مستويات عالية بسرعة وخطورة .

فقد كان الشيعة ينظرون إلى مرقد « الحسين بن على » نظرة تقديس ، وكان لذلك الهجوم على مرقده صدى سيئاً للغاية فى مختلف الأوساط الإيرانية ، وجاء هذا الحادث فى وقت كان فيه « فتح على » (شاه إيران)[٢] يتبع سياسة نشطة فى المجالات الدولية والإسلامية والمحلية متطلعاً بقوة نحو السيطرة على العراق تحت ستار الأهداف المذهبية الشيمية لتحقيق أهداف اقتصادية ، وكان سليمان باشا الكبير (والى العراق حينذاك) يدرك هذه الأهداف ، كما أن الباب العالى العثمانى ما كان ليقبل ذلك التدخل الإيرانى فى أمور العراق ، كما كان لا يقبل أن يقال إن الحكومة العثمانية عاجزة عن الدفاع عن العراق ضد الوحدين[٣] .

وعلى هذا النحو أصبح من الضرورى أن يبعث سليمان باشا الكبير بحملة جديدة ضد الوحدين ، ليمنع عن العراق هجماتهم ، وليستعيد ثقة السلطان به ، وليدرأ خطر التدخل الإيرانى فى أمور العراق . ومعنى هذا أن سليمان باشا أصبح أكثر حاجة إلى القوى العشائرية عن ذى قبل . ولكن توفى سليمان باشا الكبير فى عام ١٨٠٢

---

(١) ع . العزاوى ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) حكم إيران من ١٧٩٧ — ١٨٣٤ .

(٣) هـ . لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، الطبعة الثالثة ، بغداد ١٩٦٢ ص ٢١٥ — ٢١٦ ، عباس العزاوى ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ١٤٤ ، رسول الكركوكى ، دوحة الوزراء ، ص ٢١٦ — ٢١٧ .

وجاء بعده فى حكم ولاية بغداد « على باشا » الذى كان قد سبق له أن تولى حملات فاشلة ضد الموحدين . وعلى أى حال أصبح على « على باشا » أن يعيد تشكيل قواته وأن يرسل حملة كبيرة ضدهم . وكان من الطبيعى أن يعول « على باشا » على الشيخ فارس ورجاله من مقاتلى شمر الجربا . وفعلا شاركت شمر الجربا فى جهود « على باشا » العسكرية ضد الموحدين ، ولكن دون أن تصل تلك الجهود إلى نتيجة إيجابية بل على العكس تزايدت هجمات الموحدين على العراق ، حتى لقد فضل الشيخ فارس أن يبحث لعشائره عن مراعٍ جديدة بعيدة عن متناول سيوف الموحدين .

قاد « الشيخ فارس » عشائره إلى الجزيرة فى شمال العراق لعل العيش يصفو لها هناك . ولكن وصول هذه العشائر الشمرية إلى الجزيرة كان فى حد ذاته خطراً على العشائر الأخرى النازلة هناك . ولهذا كان تاريخ شمر الجربا — منذ ذهابها إلى شمال العراق — عبارة عن سلسلة من الصراع مع عشائر العبيد والعقيل . وحيث أن زعماء عشائر العبيد كانوا ميالين إلى الموحدين فما لا شك فيه أن ذلك كان من العوامل الرئيسية التى عمقت البغضاء بين شمر الجربا والعبيد . ولعل هذا يفسر لنا عنف الحملات التى كان يشنها الشيخ فارس على عشائر العبيد[1] . ولقد كسب « الشيخ فارس » من وراء ذلك ثقة « على باشا » والى بغداد ، حيث أن الأخير كان شديد الكراهية لشيوخ العبيد بسبب ميول زعمائهم للموحدين . بل أصبح « على باشا » يخشى من أن يقوم الموحدون — بالتعاون مع أعوانهم فى العراق — بانقلاب يطيح بحكومته . ولهذا كان الرجل مستعداً لأن يقدم على أى عمل يخلصه من تلك الأخطار التى كانت تحيط به ، حتى أنه لم يتورع عن إغتيال إثنين من زعماء العبيد هما « محمد » وأخيه « عبد العزيز الشاوى »[2] .

ولكن سياسات العراق حينذاك كانت تختلف باختلاف الولاة وميولهم ولهذا

---

(١) ع . العزاوى ، عشائر العراق ، حـ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) ذكر صاحب مطالع السعود أن مقتلهما كان بسبب ميولهما الوهابية ، انظر مختصر مطالع السعود ، ص ٣٠ ، بينما لم يتعرض « جودت » فى تاريخه لهذا السبب عندما تعرض لهذه المشكلة ، تاريخ جودت ، حـ ٧ ، ص ١٩٩ .

حدث تبدل فى السياسة بعد مصرع « على باشا » فى ١٨٠٧ . فقد حل محله فى ولاية بغداد سليمان باشا الصغير[١] الذى كان ميالا للموحدين . كذلك نجد والى بغداد « سعيد باشا » (١٨١٣ — ١٨١٦) يعتمد على عشائر العبيد ويضع أمور البلاد فى يد أحد شيوخ هذه العشائر وهو قاسم الشاوى . وحيث أن عشائر العبيد كانت شديدة العداء لعشائر شمر الجربا ، فقد أدى ذلك إلى أن تفقد هـــذه الأخيرة تلك المكانة الـكبيرة التى كانت تحتلها زمن سليمان باشا الـكبير وعلى باشا .

ومما جعل الأمور أمام عشائر شمر الجربا أكثر تعقيداً أنها فقدت بوفاة شيخها المجرب « فارس » الزعيم الذى يستطيع أن يواجه تلك الظروف القاسية . وقد تولى المشيخة بعده « بنية بن قرينص » الذى أصبح عليه أن يواجه حلفاً كبيراً تشـكل ضده . وكان هذا الحلف مكوناً من عشائر المنتفق والخزاعل والروله والعقيل ، بل انضمت إليه عشائر العبيد وقوات الوالى سعيد باشا . ويبدو أن هذا الحلف كان قد عقد العزم على توجيه ضربة ساحقة لعشائر شمر الجربا (١٨١٦/١٢٣١) ولم يكن أمام « بنية بن قرينص » إلا أن يقرع السيف بالسيف . فـكان أن دارت معركة كبيرة فى أراضى لملوم . وانجلت عن هزيمة شمر الجربا ومصرع « بنية » نفسه .

ولما كان رجال « شمر الجربا » يدركون دقة موقفهم ويمنون بأن يكون شيخهم مقداماً جريئاً قادراً على أن يقود العشيرة وسط أعداء عديدين فقد وقع اختيارهم على « صفوق بن الشيخ فارس »[٢] . حقيقة كان تاريخ حياة شيوخ شمر الجربا سلسلة من الـكفاح من أجل الحياة ، إلا أن تاريخ حياة صفوق بالذات كان مليئاً بالأحداث الجلى . ولقد كان صفوق[٣] منذ شبابه جريئاً قوى الشكيمة ، مولعاً بالمخاطر والغزو ، عزمه من حديد ، وفى عينيه بريق حاد يؤكد قدرته على الإصرار وعلى تحقيق الأهداف .

---

(١) حكم من ١٨٠٧ ـ ١٨١٠ .

(٢) رسول حاوى الـكركوكى ، دوحة الوزراء ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(٣) كان عوده متناسقاً إلا أنه كان ممتلىء الجسم نوعاً ما مما كان يعطيه شكلا تركياً ـ

وقد امتدت مشيخة صفوق[١] من ١٨١٦ إلى ١٨٤٣ . وتعتبر هذه الفترة من أدق فترات تاريخ المشرق العربي ، كما عاصر صفوق مجموعة من أهم الشخصيات التاريخية التي لعبت أدواراً خطيرة في المنطقة . فقد تولى حكم العراق إبتداء من ١٨١٧ الوالي داود باشا[٢] الذي كان يسعى إلى توحيد العراق تحت حكمه وإلى تجديد شباب العراق حتى ولو كان ذلك رغم أنف السلطان العثماني . وكان على عرش السلطنة العثمانية حينذاك « محمود الثاني » (١٨٠٨ — ١٨٣٦) الذي كان مصمماً على أن يعيد حكمه المباشر إلى مختلف ولايات الدولة العثمانية حتى لو اقتضى ذلك استخدام القوة العسكرية ضد الولاة المتغلبين من أمثال داود باشا في بغداد ومحمد على باشا في القاهرة ، ويوسف القره منلي في طرابلس الغرب . وعاصر صفوق أيضاً « فتح علي » شاه فارس الذي كان يبذل — هو الآخر — كل جهده من أجل تجديد قوة بلاده لعله يتمكن من انتزاع العراق من السلطنة العثمانية .

وعاصر صفوق كذلك بداية الفترة التي استعاد خلالها طريقا العراق ومصر — بين الشرق والغرب — بعض أهميتها كخطوط مواصلات سريعة حديثة عالمية ،

---

(١) كان لصفوق قصة حب كبيرة . فقد حدث أن شاهد في يوم من الأيام ، وهو لا يزال في فتوة الشباب ـ فتاة بهرته بجمالها وهي عمشة بنت شيخ عشائر طي . ولقد سميت كذلك منعاً للحسد على عادة العرب . وكانت الفتاة ذات سمرة خمرية أخاذة ، وكانت ذات عينين خاطفتين ساحرتين . فشغف ، وأصر على الإقتران بها . ولكن أبوها رفض أن يزوجه إياها ، فما كان من صفوق إلا أن دبر خطة لإختطافها ونفذها بنجاح . وكانت مثل هذه الجرأة كفيلة بأن تشعل نيران قتال مرير بين العشيرتين . لولا أن تدارك الأمر عقلاء القوم ، وتغلبت الحكمة على التهور خاصة وأن طي من بني عمومة شمر . ووافق شيخ طي على أن يتزوج صفوق من إبنته ، وزفت إليه لتصبح بعد ذلك سيدة شمر الأولى . وكانت عمشة تتزين بكميات كبيرة من الذهب تضعها حول رقبتها وعلى صدرها . وكان يتدلى قرط ذهبي من أذنها حتى خصرها ، كما ثبت قطعة ذهبية أخرى على أنفها كانت تتدلى على فمها حتى تغطيه فتضطر إلى إزاحتها بيدها عندما تتناول طعامها . وكانت عندما تتبختر في مشيتها تسمع أصوات رنين الذهب بوضوح . انظر :

H. Layard : Nineveh and its Remains, London, 1849, vol. I, pp. 100-102

(٢) انظر عبد العزيز نوار ، داود باشا والى بغداد ، المكتبة العربية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

وذلك بعض اختراع الباخرة والقاطرة الحديدية وظهور مشروعات لاستخدامهما فى العراق .

ذلك هو العصر الذى عاشه صفوق ، وهو عصر ملىء بالأزمات والتطورات السريعة . وزاد من دقة موقف صفوق — فى سنوات مشيخته الأولى — أنه تولى هذه المشيخة بعد تلك الهزيمة المريرة التى منيت بها عشائره . حقيقة سقط سعيد باشا — والى بغداد — بعد ذلك بوقت قصير جداً فزال بسقوطه خصما شديداً لشمر الجربا ، ولـكن الوالى الذى جاء بعده ، وهو داود باشا (١٨١٧ — ١٨٣١) ، كان على جانب كبير من النشاط وصاحب آمال واسعة . وكان معنياً كل العناية فى أوائل أيام حكمه أن يثبت أقدامه فى حكم العراق . وكان هذا يتطلب منه أن يجمع قدراً كبيراً من الأموال ليسد به حاجته وحاجات أعوانه وليقدم للباب العالى الأموال التى تعهد بدفعها إلى خزانة السلطان . ولهذا شرع داود فى مطالبة العشائر بدفع ما عليها من متأخرات من أموال الميرى . وكان صفوق من بين من طلب منهم داود دفع الضرائب للحكومة . وكانت أحوال عشائر شمر الجربا سيئة ، هذا فضلا عن أن العشائر كانت غالباً ما ترفض طلبات ولاة بغداد ولا تدفعها إلا إذا شعرت بأن الوالى قد ضغط عليها بقوة . ولهذا اصطدم الرجلان بعضهما ببعض . وبعث داود باشا بحملة ضد « شمر الجربا » فى ١٨١٧ ولـكن لم يصل الوزير داود إلى نتيجة حاسمة بسبب قدرة هذه العشائر على التوغل بعيداً عن متناول سيوف الجيش . ومن ناحية أخرى لم تـكن لدى داود فرصة متسعة لمتابعة الضغط على صفوق بسبب هزيمة قوات الحـكومة أمام عشيرة الصقور هزيمة أضاعت هيبة الوالى فى البلاد الأمر الذى جعل داود باشا يركز قواته ضد عشيرة الصقور . فكان انشغاله بتلك العشائر فرصة طيبة لصفوق ليتابع تنظيم عشائره وتقوية جانبها .

ويبدو أنه خلال السنوات الأولى من حكم داود باشا كان كل من الرجلين ينظر بعين الحذر للآخر . ولم يدرك كل منهما أن العراق فى حاجة إلى تعاونهما معاً إلا عندما دهم الخطر الفارسى البلاد .

لقد كان الفرس يعدون العدة للاستيلاء على العراق . وتزايد نشاطهم المعادى على الحدود العثمانية (العراقية) ، ثم قام الفرس بهجوم شامل . ومنذ البداية كان

تفوقهم العسكرى واضحاً ، وانتصرت القوات الفارسية على جيش داود ، واقتربت القوات الفارسية من بغداد نفسها وشرعت فى حصارها .

وكان المفروض أن يبعث السلطان العثمانى بقوات من عنده لإنقاذ بغداد من الفرس ، ولكن كل قواته كانت مشغولة بقتال القوات الفارسية فى جبهة أرضروم . وهكذا أصبح على العراق أن يدافع عن نفسه معتمداً قدراته الخاصة به . فما كان من داود باشا إلا أن جمع قواته ومماليكه خلف أسوار بغداد واستعد لحصار طويل . ولكن ظلت هناك قوة عربية عراقية قادرة على الحركة السريعة وعلى مناوشة الجيش الإيرانى والنيل منه ، ونعنى بذلك عشائر شمر الجربا .

فقد وضع رجال شمر الجربا — تحت قيادة صفوق — سيوفهم فى خدمة والى بغداد دفاعاً عن العراق ، وقام صفوق بعدة عمليات عسكرية ضد الفرس[1] . ولكن ليس معنى هذا أن هذه القوى العشائرية كانت قادرة على رد الغزو الفارسى ، إنها تستطيع أن تكبده خسائر كبيرة ، وأن تقطع خطوط مواصلاته ، ولكنها لا تستطيع أن تهزم جيشاً مثل الجيش الذى غزا به «فتح على» العراق ، ولقد قامت الكوليرا بمهمة إخراج الفرس من البلاد حيث أنها تفشت بينهم بقسوة فأوهنت قوتهم وجعلتهم يفضلون عقد الصلح مع الدولة العثمانية (١٨٢٣)[2] .

كان لتلك المجهودات الكبيرة التى بذلها صفوق فى الدفاع عن العراق أثرها الكبير فى نفس داود باشا ، فحفظ له الجميل . وكافأه بأن أقطعه « عانة وما يتبعها من القرى »[3] ، وارتفعت منزلته لدى الوزير . ويبدو أن صفوق — وقد شعر بتفوق مكانته — وجد أن الفرصة قد سنحت لفرض هذا التفوق على خصوم شمر الجربا ، وعلى عشائر عنزه بصفة خاصة . وسرعان ما وقع القتال بين شمر الجربا وعنزه ، وكسب صفوق الجولة الأولى ، ولكن عشائر عنزه كانت ضخمة العدد ، وكانت لا تقبل بسهولة مثل هذه الهزيمة ، فأعادت « عنزه » تنظيم نفسها ، وجمعت

---

(١) ع . العزاوى ، تاريخ العراق بين احتلالين ، حـ ٦ ، ص ٢٦٣ — ٢٦٥ ، عشائر العراق ، حـ١ ص ١٥٣ ، عبد العزيز نوار ، داود باشا ، ص ١٠٧ .

(٢) عبد العزيز نوار ، داود باشا ، ص ١٨٠ .

(٣) ع . العزاوى ، تاريخ العراق ، حـ٦ ، ص ٢٨٦ .

جموعها ، ودارت الدائرة هذه المرة على « شمر الجربا »[1] . ولقد كان انتصار عنزه كبيراً لدرجة أن داود باشا وجد أن عنزه أصبحت خطراً يهدد العراق . وليس هناك من قوة تستطيع أن تصدها عن مزارع العراق سوى شمر الجربا . ولهذا عمل داود على تقديم المعونة إلى صفوق ليعيد تنظيم عشائره ويجعلها قادرة على التصدى لعشائر عنزه إذا عمدت إلى التوغل داخل العراق[2] .

ولكن فترة الوفاق بين داود باشا وصفوق لم تدم طويلا . فى السنوات الأخيرة من حكم داود تحولت علاقاته بصفوق إلى عداء مستحكم . فلقد انقلبت الصداقة إلى بغضاء شديدة حوالى ١٨٢٧ . وليس لدينا معلومات وافية عن الأسباب التى أدت إلى هذا التحول . ولكن هناك بعض الاتجاهات العامة التى يمكن أن تفسر لنا هذا التطور .

لقد كان داود يحاول أن يفرض سيطرته بقوة على طول البلاد العراقية وعرضها من الموصل إلى البصرة لعله يعيد إلى العراق تماسكه ووحدته تحت يده . ومثل هذه السياسة تتطلب من العشائر أن تركن إلى الهدوء وإلى الاستقرار فى أماكن محددة ، وأن تعيش على الزراعة بدلا من حياة البداوة والترحال . ولكن مثل هذه الاتجاهات كانت لا تلقى قبولا لدى العشائر البدوية . ومن ناحية أخرى كان داود يرى أن عدم السيطرة على شمر الجربا بالذات قد يؤدى إلى القضاء على مشروعاته الخاصة بالسيطرة على الموصل . فلقد كانت شمر الجربا مسيطرة على منطقة الجزيرة التى تتحكم فى الطريق بين بغداد والموصل . وكان لا بد لداود — قبل أن يبدأ عملياته إزاء الموصل — أن يضمن هدوء واستقرار عشائر شمر الجربا حتى لا تتعرض خطوط مواصلاته مع الموصل لخطر الانقطاع المفاجىء .

هذا إلى أن داود كان قد شرع فى إدخال الأساليب الأوروبية الحديثة فى الجيش . والمعروف أن الجيش الحديث لا يعتمد إلا فى القليل على التشكيلات العشائرية . ومعنى هذا أن حاجة داود إلى قوة شمر الجربا قد أخذت تتناقص كلما نما

---

(١) ع . العزاوى ، عشائر العراق ، حـ١ ، ص ١٠٣ .

(٢) ع . العزاوى ، تاريخ العراق ، حـ٦ ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

جيشه الحديث وهذا يعنى أن شمر الجربا ستفقد — إن عاجلاً أو آجـــلاً — الامتيازات التى كانت تتمتع بها .

أضف إلى هذا الأسباب المعتادة التى تؤدى إلى وقوع الصدام بين العشائر والحكومة ، وأهمها رغبة العشائر باستمرار فى الامتناع عن دفع ما عليها من ضرائب ، والكراهية العميقة التى يكنها رجال العشائر العربية للحكومات الأعجمية .

وعلى أى حال وقعت الأزمة بين داود وصفوق . وكانت أزمة طاحنة شأنها فى ذلك شأن تمردات عشائر شمر الجربا السابقة فهى عشائر صعبة المراس ، بعيدة المنال ، سريعة الحركة ، قادرة على أن تهبط مقتربة جداً من بغداد قاطعة الطرق المؤدية إليها ، ناهبة ما تمر به من قرى ، ثم تعود مسرعة موغلة فى الصحراء فتعجز قوات الحكومة عن اللحاق بها . ولقد طال الصراع بين صفوق وداود دون أن يكسب الأخيرأى جولة من جولات هذا الصراع الذى امتد من ١٨٢٧ إلى ١٨٣٠ . وفى أغسطس ١٨٣٠ استطاع داود أن يستخدم بعض وحدات جيشه الحديثة التشكيل ضد صفوق ورجاله (١) . ولكن فى نفس هذه السنة بالذات انقلبت الموازين بسرعة لصالح صفوق . فقد انفجر النزاع الحاد بين داود باشا والسلطان محمود الثانى وعزم الأخير على إبعاد داود والمماليك عن حكم العراق وأعادته إلى الحكم المباشر العثمانى مرة أخرى (١٨٣٠) .

وترجع هذه الأزمة الكبيرة بين داود والسلطان العثمانى محمود الثانى إلى أن داود كان قد تخطى حدوده كوال عثمانى على بغداد من حيث قيامه بإعداد جيش حديث كبير قادر على التصدى لقوات السلطان نفسه . ووجد السلطان محمود الثانى أن الإسراع فى القضاء على داود خير من الإبطاء ، حتى لا يعطى لداود فرصة لاستكمال استعداداته . ولقد بلغت مخاوف السلطان العثمانى ذروتها عندما امتنع داود باشا عن إمداده لا بالمال ولا بالرجال خلال الحرب التركية — الروسية (١٨٢٧ — ١٨٢٩) . ولهذا بعث السلطان العثمانى إلى العراق بأحد كبار موظفيه إلى داود حاملا فرمان عزل داود عن ولاية بغداد . فما كان من داود إلا أن قتل مبعوث السلطان متعمداً

---

(١) A.N. Groves : Journal of a Residence at Bagdad during the years 1830-1831, London, 1832, p. 24

بذلك الأزمة إلى ذروتها ، فأرسل السلطان جيشاً بقيادة على باشا رضا(١) إلى العراق .

كان طبيعياً أن يستعين على رضا بالقوى المادية لداود . وكان « صفوق » مستعداً للتعاون معه لتقوية مركزه في العراق تحت ستار التعاون مع جيش السلطان ضد داود الثائر على الخلافة العثمانية صاحبة الحق الشرعي في أن تولى أو تخلع من تشاء حسب منطق ذلك العصر . كذلك وجد على باشا رضا في قاسم العمرى (والى الموصل) حليفاً قوياً له لأنه كان من ألد اعداء داود ، ونسق هؤلاء (على رضا وصفوق وقاسم العمرى) عملياتهم العسكرية ، وأصبح على صفوق أن يقطع المواصلات بين بغداد وبقية أجزاء العراق . فقامت عشائره بهذه المهمة . ومع هذا كانت الدلائل تشير إلى أن جيش داود كان لايزال قادراً على الصمود طويلا أمام جيش السلطان ومن يشد أزره . إلا أن الأقدار كانت أقوى من الآمال والإمكانات. فقد انقض وباء الطاعون على جيش داود فقضى على معظمه ، وأصيب داود نفسه به ، وانفض كثير من الناس عنه فيما عدى عدد قليل من أعوانه وأهمهم يوسف أغا (رئيس الحسابات) وسليمان (الميراخور)(٢) ومحمد افندى (المصرف) . وقد حاول هؤلاء الثلاثة القيام ببعض العمليات التي يمكن بها تقوية جانب داود في هذه الأزمة الطاحنة . ولكن كان صفوق وقاسم العمرى لهم بالمرصاد . فقد اتفقا على فرض حصار قاتل على بغداد يمنع الخروج منها أو الدخول إليها حتى تضطر إلى التسليم . وعندما حاول يوسف أغا العودة إلى بغداد على رأس قوة مسلحة وبأموال معه كثيرة — كان قد جمعها من نواحي كركوك — أسرع صفوق إلى خمسمائة من خيالة شمر الجربا ومعهم ثلاثين من مشاة العقيل من حملة البنادق . ووضع خطته على أساس أن يكمن مشاة العقيل في أحد الأنهار الجافة بينما يقوم خيالة شمر باستدراج قوات « يوسف أغا » إلى هذا الكمين . ونفذت الخطة بنجاح وسقط عدد كبير من القتلى بل وقع يوسف أغا نفسه أسيراً في يد رجال صفوق(٣) . وكانت هذه الهزيمه بمثابة بداية

---

(١) كان والياً على حلب فاسندت إليه ولاية بغداد والموصل وديار بكر ليقوم بالقضاء على داود ومماليكه .

(٢) منصب من المناصب المملوكية الكبيرة .

(٣) سليمان فائق : تاريخ بغداد ، ص ٧٨ — ٧٦ .

النهاية لداود ورجاله ، فقد استسلمت بغداد إلى قاسم على اعتبار أنه قائمقام على باشا رضا[(١)] .

دخل قاسم العمرى بغداد وفى معيته صفوق ورجاله ، وسليمان الغنام ورجاله من العقيل . وكان هذا فى محرم ١٢٤٧/١٨٣١ . ويحدثنا الكاتب التركى سليمان فائق عن أن صفوق عنى عناية خاصة بالبحث عن زوجة سليمان أغا (الميراخور) ليحصل عليها حيث أنه كان يدعى أنها وهبت له من قبل[(٢)] .

أما سليمان الغنام ورجاله من العقيل فكانوا يقومون كذلك بعمليات النهب والسلب حيث أن قاسم العمرى كان قد ترك الحبل على غاربه لكل من سليمان الغنام وصفوق . وحيث أن كلا منهما كان بدوياً لا يتقن فن إدارة المدن أو معاملة أهاليها فقد أقدماً على تعديات خطيرة . وقد حاول أهالى المدينة ردعهما بالحسنى دون جدوى . فلم يبق أمامهم سوى الاحتكام إلى السيف رغم ما كانوا عليه من حالة نفسية ومادية متدهورة بسبب النكبات المتتالية التى ألمت بالمدينة خلال فترة قصيرة من الزمن (١٨٣٠ — ١٨٣١)[(٣)] . ورغم ذلك أعلن البغداديون ثورتهم على قاسم العمرى وأعوانه (صفوق وسليمان الغنام) . فقتلوا الأول وعزموا على خوض معركة ضد القوات الشمرية والعقيلية ، رغم ما عرف عن القوات الشمرية من كثرة عدد وقسوة فى القتال ، ورغم ما عرف عن العقيليين من دقة فى استخدام البنادق .

ومن المعروف عن القوات الشمرية أنها أعجز من أن تقاتل داخل المدينة قتال شوارع لعدم تمرسها على هذا النوع من القتال . ولهذا آثر صفوق أن يغادر بغداد برجاله ، وبأقصى سرعة ممكنة ، كما فر منها سليمان الغنام ورجاله العقيليين[(٤)] .

---

(١) عبد العزيز نوار : داود باشا . الفصل السابع عبارة عن دراسة مفصلة للظروف التى أدت إلى استسلام بغداد لقاسم العمرى .

(٢) تاريخ بغداد ، ص ٨٤ .

(٣) خلال السنتين ١٨٣٠ — ١٨٣١ تعرضت بغداد لحصار قوات السلطان ، ولوباء الطاعون الذى أفنى أغلبية سكانها ولفيضان نهر دجلة الذى دمر وشرد معظم البقية الباقية من سكان ومبانى المدينة .

(٤) سليمان فائق ، تاريخ بغداد ، ص ٨٣ — ٨٤ ؛ رحلة فريزر ، ص ١٢٢ .

وبهذا تخلص البغداديون من هذا الحكم البدوى الذى كاد أن يجهز على المدينة . وهكذا أثبتت الطبائع البدوية أنها غير قادرة على إدارة أمور مدينة أو ولاية . هذا فضلا عن أن الفردية تغلبت على أعمال كل من قاسم العمرى وصفوق وسليمان الغنام فعلى حد قول سليمان فائق :

« لقد تفرد كل من ... صفوق وسليمان الغنام بإصدار ما يشاءون من الأوامر المتضاربة دون التشاور بعضهم بعضاً . ولم يكونوا على أمر جامع »[1] .

كان البغداديون يعتقدن أن مصرع قاسم العمرى وفرار صفوق وسليمان الغنام من بغداد قد يقنع السلطان العثمانى — محمود الثانى — وعلى باشا رضا بأن اقتحام بغداد بالقوة أمر بعيد الاحتمال . ولكن « على باشا رضا » كان عنيداً مصراً على أن يستولى على بغداد فتابع حصارها تشد أزره قوات شمر الجربا بقيادة صفوق . واضطرت بغداد فى نهاية الأمر أن تفتح أبوابها لعلى باشا رضا ، بل استسلم إليه داود كذلك . ودخلت قوات على رضا بغداد وبدأ بذلك الحكم المباشر العثمانى لبغداد (١٨٣١) .

و نلاحظ هنا أن القوات التى دخلت بغداد لم تتضمن أية قوة عشائرية ، وهذا يدل على بعد نظره ، وقدرته على التعلم من الأخطاء السابقة . هذا إلى أن على رضا كان قد جاء إلى العراق ليقضى على نظام المماليك حتى يصفو الجو للحكم المباشر . وهذا يتطلب كف أية قوة أخرى غير قوة الوالى العثمانى عن ممارسة الحكم أو توجيه الأمور ، ومن ثم فمهمة قوات شمر — من جهة نظر على رضا — هى القيام بالجهد العسكرى دون التطلع إلى أى نوع من أنواع المشاركة فى الحكم أو امتيازاته .

ويبدو أن صفوق أدرك هذه الحقيقة ، فنقل بسرعة نشاطه إلى الميدان الذى يستطيع أن يحصل فيه على مكاسب أكثر واقعية . ففى أعقاب سقوط بغداد فى يد على رضا نجد صفوق يقود قواته ضد عقيل السعدون — شيخ عشائر المنتفق .

كانت عشائر المنتفق من كبريات عشائر العراق ، وكانت تسيطر على مقدرات البصرة ، وبلغت هذه العشائر درجة كبيرة من القوة عندما استطاعت أن ترفع سعيد

---

(١) سليمان فائق ، تاريخ بغداد ، ص ٨٩ .

باشا إلى منصب الولاية (١٨١٣) ، وظلت عشائر المنتفق تشد أزره ضد منافسة داود لمدة طويلة . ولما نجح داود فى الحصول على منصب الولاية أخذ يتدخل فى أمور المنتفق حتى أسند مشيختها إلى « عقيل السعدون » الموالى له . وعندما وقعت الأزمة بين داود باشا والسلطان العثمانى (١٧٣٠ — ١٨٣١) وقف « عقيل السعدون » بجانب داود . فلما استسلم داود إلى « على رضا باشا » أصبح على هذا الوالى الجديد أن يتخلص من أعوان داود فى العراق ، وبالتالى أصبح الصدام بين « عقيل السعدون » والحكم العثمانى الجديد أمراً لا مناص منه .

وكان المفروض أن يبعث « على باشا رضا » حملة ضد « عقيل السعدون » الذى عزله عن المشيخة ، ولكن اتبع « على رضا » السياسة المألوفة لدى ولاة العراق فى مثل هذه الأمور . وهى ضرب العشائر بعضها ببعض . وكان صفوق « شيخ شمر الجربا » مستعداً لأن يوجه قواته ضد « عقيل السعدون » . وكانت الظروف مواتية لصفوق ليضرب ضربته بقوة ، حيث أن الإنقسام فى البيت الحاكم السعدونى نفسه كان كبيراً ، بل كان فى بغداد عدد من الشيوخ السعدونيين المناهضين لعقيل لنفسه ويسعون إلى خلعه من المشيخة والحلول محله . وكان هؤلاء الشيوخ السعدونيون يحثون « على باشا رضا » على التدخل ضد ابن عمهم « عقيل السعدون » ، وعرضوا عليه تقديم كافة المساعدات فى مقابل حصول أحدهم على المشيخة وانتهت هذه المفاوضات بتفاهم تام بين هؤلاء وعلى رضا وصفوق بأن يقوم صفوق ورجاله بالزحف ضد « عقيل السعدون » يشد أزرهم أعوان أولئك المشايخ المنافسين لعقيل . وفعلا تمت الترتيبات على أساس أن يقوم صفوق بالتعاون مع الشيوخ السعدونيين المتحالفين معه بحملة كبيرة ضد « عقيل السعدون » .

زحفت قوات صفوق وحلفائه صفوال وحلفائه ديار المنتفق ، ودارت معركة كبيرة بين الطرفين ، وأحرز صفوق ورجاله نصراً كبيراً ولكن بعد قتال مرير من جانب المنتفق حتى لقد سقط « عقيل السعدون » نفسه فى المركة . ولا شك أن مصرعه كان فى حد ذاته عاملا حاسماً فى هزيمة المنتفق حيث أن موت الشيخ أو القائد حينذاك كان يعنى تشتت شمل قواته وهزيمتها . وكان طبيعياً أن يذيع صيت

صفوق بعد ذلك ، حتى لقد أطلق عليه منذ ذلك الوقت لقب « سلطان البر »[١] .

لقد أصبحت عشائر شمر الجربا — فى أعقاب ذلك — من أكبر عشائر العراق فعالية ، وأكثرها قدرة على الحركة لتعدد خبراتها فى القتال وتنوع الأزمات التى تعرضت لها . فأكسبت تلك الظروف « صفوق » بصفة خاصة ، ورجال عشيرته بصفة عامة ، خبرات سياسة وعسكرية لم تكن متوفرة لدى غيرهم من رجالات العشائر الأخرى ، وكان هذا فى وقت دخل فيه الوطن العربى فى تجربة جديدة هزته هزاً عنيفاً ، وجعلت العراق مجالا من مجالات السياسة الدولية النشطة ، ونعنى بذلك الانتشار المصرى فى المشرق العربى فيما بين ١٨٣١ و ١٨٤١ .

فبعد نشوب القتال بين الجيش المصرى والجيش العثمانى فى الشام إبتداء من أكتوبر ١٨٣١ أصبح لزاماً على « على باشا رضا » أن يسهم بما لديه من إمكانيات فى المجهود الحربى العثمانى من أجل عرقلة التقدم المصرى فى الشام ومن أجل تقويض دعائم الوجود المصرى هناك تنفيذاً للسياسة العامة للسلطان العثمانى محمود الثانى الذى طالب الولاة بتقديم كل مساعدة ممكنة للجيوش العثمانية فى حربها ضد « محمد على باشا » والى مصر . وكان الأمر أمام « على رضا باشا » صعباً حيث أنه كان يعتمد على القوات التى جاءت معه من حلب إلى العراق . ومعظمها قوات غير نظامية كثيرة الشغب صعبة القيادة ليس من اليسير الإعتماد عليها فى حرب كتلك التى كانت تدور رحاها فى الشام بين القوات المصرية والقوات العثمانية .

وهكذا وجد على باشا رضا نفسه مضطراً إلى إستخدام القوات العشائرية فى شد أزر الجيوش العثمانية المقاتلة فى الشام وحيث أن عشائر شمر الجربا كانت قد اشتهرت بقدراتها العسكرية فقد وضع « على رضا » عينه عليها كقوة يمكن الإسهام بها فى الحرب الدائرة فى الشام . خاصة وأن هذه العشائر كانت من أكثر عشائر العراق

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق ، جـ٧ ، ص ١٩ ، ولقب « سلطان البر » كان يمنح للشخصيات العربية القوية . ولقد حصل عليه فخر الدين المعنى فى أوائل القرن السابع عشر . انظر الخورى بولس قرالى ، فخر الدين المعنى الثانى ودولة تسكانيا ١٦٠٥ — ١٦٣٥ ، رمية مجمع العلوم والفنون الملكى الإيطالى ، ١٩٣٨ ، الجزء الثانى ، ص ١٦ .

تعاوناً معه فى العراق . فكان من المنتظر أن تكون مستعدة كل الإستعداد للقيام بتلك المهمة . هذا فضلا عن أن أراضى شمر الجربا كانت تمتد على مساحات واسعة من الجزيرة العراقية .

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر أصبحت الجزيرة العراقية ذات أهمية كبيرة دولية بسبب التطورات التى حدثت فى أساليب المواصلات العالمية تلك التطورات التى جعلت أنظار أوربا تتجه إلى إعادة الحياة إلى الطرق العالمية القديمة عبر الشرق الأوسط إلى آسيا على إعتبار أنها أقصر من طريق « رأس الرجاء الصالح » وعلى إعتبار أنها أقدر على إستيعاب أساليب النقل الحديثة البخارية ، فاتجهت المشروعات نحو مد خطوط بخارية ملاحية بين الموانى الأوربية والساحل السورى ومنه تنقل البضائع إلى بيره جك فى أعلى نهر الفرات أو إلى الموصل على نهر دجلة ، ومن هناك يعاد شحن البضائع على بواخر تهبط أحد النهرين إلى الخليج العربى ومنه إلى الهند والشرق الأقصى [١]. ومن هنا برزت أهمية الجزيرة العراقية حيث أنها تقع بين نهرى الفرات ودجلة وتسيطر على هذا الطريق الدولى الجديد .

وهكذا أدى اختراع السفن التجارية والتوسع المصرى فى الشام (١٨٣١ — ١٨٤٠) إلى إرتفاع أهمية الجزيرة العراقية إلى مجالات التنافس الدولى [٢]، وإلى أن تجد عشائر شمر الجربا — المسيطرة على الجزيرة العراقية ، نفسها فى موقف جديد سواء من حيث الأوضاع الداخلية أو الخارجية ومن ناحية أخرى كان على رضا لاشك سيجعل مميزات الجزيرة العراقية فى خدمة أهدافه إذا ما ضمن تعاون صفوق معه تعاوناً كاملا . ولعل هذا يفسر لنا لماذا علق « على رضا » آمالاً واسعةً على صفوق ورجاله .

---

(١) انظر Hoskins : British Routes to India, New York, 1928, Chapters II-XIII.

(٢) أصبحت الجزيرة العراقية مجالا واسعاً للدراسات الأنجليزية التى كانت تهدف الى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن العشائر العربية النازلة فيها حيث أن أى اضطرابات عشائرية كانت تهدد بالقضاء على المشروعات الانجليزية الهادفة إلى إستخدام البواخر فى نهر الفرات لربط البحر المتوسط بالخليج العربى . ولقد كانت الاضطرابات العشائرية كثيرة الوقوع فى الجزيرة بسبب الصراع المتتالى بين عشائر شمر الجربا وعنزه .

أضف إلى هذا أن « على باشا رضا » كان يعتقد أن «صفوق» سيقدم خدماته للسلطان العثمانى خلال أزمة التوسع المصرى على نفس المستوى الذى كان عليه صفوق عندما خدم الدولة العثمانية خلال حربها ضد الفرس (١٨٢١ — ١٨٢٣) وعلى نفس المستوى الذى تعاون به مع جيش السلطان ضد داود باشا (١٨٣٠ — ١٨٣١) وأيضاً على نفس المستوى الذى قاتل به « عقيل السعدون » شيخ المنتفق (١٨٣١).

ويكشف لنا الفرمان الذى أصدره السلطان محمود الثانى إلى والى الشام عن تلك الآمال الواسعة حيث جاء فيه أن صفوق وصل الخابور[١] جامعاً جموعه « كالجراد المنتشر قد ملأ الفضاء والبر »[٢] واتجه بهذه الجموع التى كانت تمتد بحوالى ثلاثين إلى أربعين ألف مقاتل صوب الشام للتعاون مع الجيوش العثمانية ضد الجيوش المصرية هناك .

ولقد جمع صفوق جموعه حقاً ، وبدا كأنه سيلتحق بالقوات العثمانية فى الشام . ولكن حدث تغير خطير فى أهدافه واتجاهاته ، حيث أنه غير رأيه ، وبدلا من أن يزحف صوب الشام لوى عنان فرسه وهبط صوب بغداد ليحاصرها شاهراً السيف فى وجه الأتراك العثمانيين[٣] .

وليس لدينا أية وثيقة تكشف لنا عن الأسباب التى أدت إلى هذا التحول الفاجىء فى موقف صفوق من الحكم العثمانى سوى ما ذكره لوريمر Lorimer [٤] من أن صفوق طالب « على رضا باشا » بامتيازات لم تلق القبول منه[٥] . وأغلب الظن أن هذا السبب يمثل واحداً من أسباب عديدة أخرى هيأت الظروف لثورة

---

(١) نهر فى شمال العراق .

(٢) عابدين محفظة ٢٣١ وثيقة ٢٨ فى ١٢ ذى القعدة ١٢٤٧هـ / ١٤ أبريل ١٨٣٢

(٣) عابدين محفظة ٢٤٦ وثيقة ١٧٨ ، ١٧٩ « غير مؤرختان » .

(٤) أحد موظفى حكومة الهند المسئولين عن جمع المعلومات عن العراق والخليج العربى وهو صاحب الموسوعة الانجليزية عن الخليج العربى Gazetteer of the Persian Gulf.

(٥) Lorimer : op. cit., vol. I, Part I, pp. 1315-1316.

صفوق على الحكم العثمانى ، وبعض هذه الأسباب يتعلق بالموقف فى العراق نفسه وبعضها الآخر يتعلق بالموقف فى المشرق العربى على وجه العموم .

فقد قامت فى بغداد ثورة كبيرة ضد على باشا رضا(١) ، وأعلن يحي باشا الجليلى (والى الموصل السابق) أنه عاد إلى حكم ولايته لا ليتولاها من قبل السلطان العثمانى ، وإنما عاد ليحكمها من قبل الحكومة المصرية . وفى أقصى جنوب العراق كان الموقف حرجاً أمام « على باشا رضا » لوجود حزب قوى فى البصرة يناصر المصريين ضد العثمانيين(٢) وبذلك يكون العراق كله عرضة لأن يخرج على العثمانيين . خاصة عندما انتشرت فيه أنباء سقوط عكا فى يد القوات المصرية . ويبدو أن القوى المناهضة للحكم العثمانى فى العراق عزمت على انتهاز هذه الفرصة لإحراز مكاسب جديدة أو للتخلص من التدخل التركى فى شئونها . ومن ذلك أن محمد بك — أمير راوندوز — سعى إلى السيطرة على معظم كردستان ، ولكن الأخطر من هذا وذاك هو ما ذكره الميجور روبرت تيلر — الوكيل السياسى الإنجليزى فى بغداد Major Robert Taylor من أنه كان هناك تحالفاً بين محمد بك (أمير راوندوز)(٣) ويحي الجليلى (حاكم الموصل) وصفوق (شيخ عشائر شمر الجربا)(٤) .

وسواء أكان هناك تحالف متفق عليه أم أن الأمر لا يعدو أن يكون اتجاهاً عاماً لدى القوى المناهضة للحكم التركى فى العراق . فإن مجرد ظهور مثل هذه القوى بمظهر التحدى العلنى للحكم التركى العثمانى كان كافياً لتشجيع العناصر الأخرى المعادية للأتراك على الخروج إلى مجال العمل الإيجابى ضدهم . ومن ذلك تعاون بقايا

---

(١) Intelligence from Bagdad contained in Report from Wood, 2 August 1832, F.O. 78/210.

(٢) Robert Taylor to Secret Committee, July 29, 1833 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf, vol. 49, pp. 541-543).

(٣) إمارة فى شمال العراق فى قلب ديار الكرد .

(٤) R. Taylor to Secret Committee, September 5, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, p. 673).

المماليك مع تلك القوى ضد العثمانيين[١] ، وانضمام سليمان بابان (حاكم السليمانية)[٢] إليها ، وكانت تلك القوى تمثل خطراً شديداً على الوجود العثمانى فى العراق .

فقد ثبت فعلا أن يحي الجليلى كان قد نسق عملياته العسكرية مع صفوق[٣] ، كذلك يحدثنا الميجور « روبرت تيلر » عن أنه كان لدى صفوق مستشارين مصريين[٤] . ومن ثم كان الزحف المفاجىء الذى قام به صفوق صوب بغداد — الثائرة ضد « على باشا رضا » — يمثل ذروة الخطر الذى تعرض له والى العراق حينذاك ، حيث أن قوات صفوق استطاعت أن تسيطر على الطرق المؤدية إلى بغداد وأن يضرب الحصار عليها الأمر الذى جعل « على رضا » بين نار ثورة داخليه ونار قوات صفوق من خارج بغداد .

ورغم تلك الأخطار المتعددة استطاع على باشا رضا أن يتغلب على تلك القوى المعادية له . فقد قضى والى بغداد على ثورة بغداد بضرب المدينة بالمدفعية ، فأصبح من المتعذر على صفوق أن يقتحم المدينة لا لأن الثورة فى داخلها كانت قد أخمدت فحسب بل كذلك لأن القوات العشائرية البدوية لا تستطيع أن تقيم الحصار على مدينة مسورة لمدة طويلة . وكان هناك عامل آخر قوى أرغم صفوق على رفع الحصار عن بغداد وهو مقدم جموع كبيرة من عشائر عنزه .

فقد كان من سياسة ولاة بغـداد أن يضربوا العشائر العربية بعضها ببعض ، ولهذا حرض « على رضا » عشائر عنزة ضد « شمر الجربا » واتفق مع عنزه على أن تحصل على أراضى شمر الوفيرة المرعى فى حالة انتصارها عليها . وكان هذا وعـداً

---

(١) R. Taylor to Secret Committee (Ind. Office Rec., Fact. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, pp. 541-543 and vol. 47, pp. 354-359).

(٢) R. Taylor to Secret Committee, Oct. 24, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, pp. 784-791).

(٣) R. Taylor to Secret Committee, September 5, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, p. 673).

(٤) R. Taylor to Secret Committee, Oct. 26, 1833 (Ibid., pp. 785-792).

مغرياً كل الإغراء جعل عشائر عنزه تبذل كل ما لديها من قوة من أجل الانتصار على شمر(١) .

وخلال هذا كان على رضا قد أعلن عن عزل صفوق عن مشيخة عشيرته ، وأسندها إلى « شلاش » ، إلا أن الأخير كان ضعيف الشخصية الأمر الذى جعل معظم العشائر الشمرية منضوية تحت زعامة صفوق . ومع هذا فضل صفوق أن ينسحب بعشائره موغلا صوب الشمال وبذلك لم يعد صفوق خطراً على بغداد ولهذا سحب على رضا وعوده لعشائر عنزة .

وعندما وجدت عشائر عنزه أن « على باشا رضا » قد سحب وعده أقدمت على خطوات إرهابية بأن فرضت حصاراً جزئياً على بغداد وأصبح على « على رضا » أن يجهز حملة كبيرة ضد « عنزة » وكان من المعروف أن التغلب على « عنزة » يتطلب تعاون عشائر شمر بالذات معه . وكان « شلاش » مستعداً كل الاستعداد ليضع ما تحت يده من رجال تحت قيادة « على باشا رضا » . وفى هذه الأثناء علم صفوق بهذه التطورات وأدرك أن القضية ليست قضية والى بغداد وشلاش وحدهما بل هى جزء لا يتجزأ من الصراع التقليدى بين شمر وعنزة ، ورأى أن الظروف تحتم عليه أن يتناسى أسباب النزاع ، وأن يضع يده فى يد شلاش ضد عنزة . وأغلب الظن أن صفوق أدرك أن قوات « على باشا رضا » وقوات شلاش غير قادرة على التغلب على « عنزة » ولعل هـذا هو الذى أدى إلى عودة التفاهم بين على باشا رضا وشلاش من جهة وصفوق من جهة أخرى . وفعلا بعث صفوق بألفى رجل للاشتراك فى الحملة ضد « عنزة » وبعث صفوق إلى شلاش يقول له :

« أنا وأنت متخاصمان ويمكننا أن نسوى النزاع بيننا . . . . . ولـكن شرف العشيرة فى الوقت الحاضر قد تعرض للخطر ، ولا أستطيع السكوت عن ذلك ما لم أقدم معونتى المحافظة عليه »(٢) .

ويبدو أن صفوق كان يعتقد أن عنزة لن تلقى بكل قواتها فى المعركة ، أو ربما

(١) Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf. vol. I, Part I, pp. 1315-1316.

(٢) فريزر : رحلة فريزر ، ص ١٣٤ .

كان يعتقد أن اشتراك قوات الحكومة بما لديها من مدفعية كفيل بأن يرهب عشائر عنزة ، فلا توسع فى نطاق القتال وتنسحب إلى مراعيها . ولعل هذه هى العوامل التى جعلت صفوق يقتصر على إرسال ألفى مقاتل فقط من رجاله . ولكن الحقيقة هى أن عنزة كانت مستعدة لخوض المعركة بخمسة وثلاثين ألف مقاتل . ويرى الرحالة السياسى الانجليزى فريزر Fraser أن هذه المساعدة من جانب صفوق لشلاش فى هذه الظروف لم تكن مجدية حيث أن جموع شمر الجربا لم تكن بقادرة على مواجهة جموع عنزة التى كانت متفوقة من حيث العدد بمراحل كبيرة .

وعلى أى حال قامت قوات شلاش وصفوق وعلى رضا بحملة مشتركة ضد عنزة التى تصدت لهذه القوات ، وبعد أن دارت المعركة بدا واضحاً أن كفة عنزة هى الراجحة . فقد اندحرت بسرعة قوات على باشا رضا ووقعت المدافع فى يد رجال عنزة . وسقط شلاش صريعاً ، وتحولت المعركة إلى مذبحة للقوات الشمرية . والملاحظ أن قوات عنزة آثرت أن تلقى بثقتها على رجال شمر مخلية سبيل القوات النظامية التابعة لوالى بغداد . وكانت صيحة عنزة فى تلك المعركة :

« خل النظام واقتل الجربا »[١].

ولا شك أن هذه الهزيمة الكبيرة التى منيت بها عشائر شمر الجربا هزت مكانتها حينذاك ، بينما كان عدم تشكيل عشائر عنزة بالقوات النظامية سبباً فى أن يبقى الباب مفتوحاً للتفاهم بينها وبين على باشا رضا [٢] . كما نلاحظ أن « على رضا » شرع فى تضييق الخناق على صفوق وحلفائه مرة أخرى وبوجه خاص على « يحى الجليلى » فى الموصل . وكانت هناك فى الحقيقة ضرورة ملحة لذلك حيث أن وجود « يحى الجليلى » (المتعاون مع القيادة المصرية فى الشام) فى الموصل كان يمثل خطراً كبيراً على الوجود العثمانى فى العراق .

وكان تدهور مكانه « شمر الجربا » بعد هزيمتها أمام عنزة من العوامل التى

---

(١) فريزر ، ص ١٣٤ .

(٢) يتضح هذا من أن عشائر عنزه سرعان مارفعت حصارها عن بغداد رغم انتصارها فى تلك المعركة انظر :
Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, vol. I, Part I, pp. 1317-1318.

مكنت القيادة العثمانية من توجيه ضربات قاصمة إلى الحليفين الكبيرين «يحيي الجليلي» وإلى الموصل الميال إلى المصريين ، وصفوق المتعاون معهم كذلك (١) .

وكان طرد « يحيي الجليلي » من الموصل وطرد القوى العراقية الميالة إلى المصريين أو اتهمت بالميل إليهم من أمثال أميرراوندوز (محمد بك) فى شمال العراق يتطلب التخلص من صفوق أولا . وكانت فكرة التخلص من هذه الزعامات تدرس بعناية وعلى أعلى المستويات . فقد كانت السلطات الإنجليزية الدبلوماسية وغير الدبلوماسية تبذل جهوداً واسعة لتقوية جانب الحكومة العثمانية فى العراق ، وللقضاء على القوى المؤيدة للمصريين .

وكان هناك طريقان للتخلص من صفوق :

١ — إرسال حملة كبيرة ضد عشائر شمر الجربا وإنزال الضربات المتتالية بها حتى ترغم على الخضوع لأوامر الحكومة وحتى تضطر إلى تسليم صفوق إلى والى بغداد تمهيداً لإسناد المشيخة لزعيم متفاهم مع الحكومة .

٢ — تدبير مؤامرة توقع بصفوق فى قبضة رجال الحكومة .

لقد كان الطريق الأول وعراً وغير معروف النتائج حيث أن الحكومة منذ زمن بعيد فشلت فى السيطرة عسكرياً على أية عشيرة بدوية ، وكانت الحملات الحكومية ضد العشائر الكبرى لا تنتهى إلى إنتصار حاسم وغالباً ما كانت تنتهى بتفاهم بين الطرفين على أساس أن يتنازل كل طرف عن بعض إدعاءاته أو مطالبه . ولكن هذه الظروف الجديدة لم تكن تجدى معها الحلول الوسط ، حيث أن وجود صفوق على رأس عشائر شمر الجربا كان كفيلا بأن يجعل حكومة بغداد فى انزعاج دائم من وقوع تعاون بين صفوق والقيادة المصرية فى الشام ضد القوات العثمانية فى العراق .

لقد كان « على رضا » يدرك أنه من الضرورى أن يتلخص من صفوق بالذات على اعتبار أن غيره من آل محمد (مشايخ شمر الجربا) ليس على كفاءته أو قدرته

---

(١) Taylor to Secret Committee, September 5, 1834, 1st November 1834 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf, vol. 51, pp. 1-3, 420, 547-555).

فى التفاهم مع القيادة المصرية فى الشام . وحيث أن طريق القوة كان لا يحقق أهداف على رضا فقد عمد إلى أسلوب الخديعة والتآمر . وهو أسلوب مهر فيه على رضا إلى حد كبير ، واستطاع بواسطته أن يحقق نتائج هامة ما كانت الدولة تستطيع أن تحققها إلا بنفقات مالية كبيرة وإلا بإسالة دماء غزيرة .

كان القبض على كل من « صفوق الفارس » و « محمد بك » صورتين من صور تلك المؤامرات الناجحة التى دبرها « على رضا » ضد القوى الوطنية . فقد أعلن « على باشا رضا » أنه سيخلع على صفوق فى حفلة تقام خصيصاً لذلك . وكان صفوق فى موقف لا يحسد عليه وفى حاجة إلى أن يتعاون مع حكومة بغداد إذا أراد أن يستعيد مكانته وأن يداوى جراح عشيرته وأن يعيد إلى العشيرة تماسكها . فقبل صفوق الدعوة ، وما أن ذهب إلى مقر الحفلة حتى ألقى القبض عليه (١) .

لقد كان القبض على صفوق حلقة من سلسلة من المؤامرات التى دبرها « على رضا » ضد الزعامات العراقية المناوئة له . حيث دبر مؤامرات عديده مشابهة أدت إلى القبض على محمد بك (أمير راوندوز) وعلى عدد من الزعماء الأكراد . وأرسل هؤلاء جميعاً إلى خربوط تحت حراسة مشددة ١٨٣٤ (٢) . وبعد وقت قصير نفذ حكم الإعدام فى محمد باشا ، بينما نقل صفوق إلى الآستانة وعاش فيها منفياً هو وابنه فرحان وهنا يجدر بنا أن نتساءل : هل كان للانجليز يد فى تلك المؤامرة التى أدت إلى القبض على صفوق ؟

إن السبب الذى جعلنا نلق بهذا التساؤل هو أنه كانت للدبلوماسى الإنجليزى النشط ريتشارد وود Richard Wood دور كبير فى إقناع محمد بك بالإستسلام للعثمانيين وبعدم التمادى فى الثورة ضد السلطان العثمانى (٣) . وكان هدف الإنجليز من وراء ذلك هو تقوية قبضة الحكومة العثمانية على ما تحت يدها حتى تستطيع

(١) H. Layard : Nineveh and its Remains, London, vol. I, pp. 93-97.

(٢) Werry to Ponsonby : December 3, 1836 (India Office Records, Factory Records, Persia and Pesian Gulf, vol. 54, pp. 833-854).

(٣) Ponsonby to Palmerston, October 12, 1836 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 54, pp. 675-678).

أن تركز جهودها بعد ذلك ضد الوجود المصرى فى الشام وشبه الجزيرة العربية وحتى يصبح ظهرها آمنا عندما يشتبك الجيش العثمانى مع الجيش المصرى فى الشام فى الجولة التالية المنتظرة .

ولقد كانت لدى الإنجليز مصلحة كبرى فى شد أزر الدولة العثمانية ضد الوجود المصرى فى الشام أو فى شبه الجزيرة العربية ولهذا كانت السلطات البريطانية معنية كل العناية بأن يكون ظهر الجيش العثمانى آمناً عندما يخوض المعركة المقبلة ضد المصريين فى الشام ، هذا فضلا عن أن تقوية قبضة الحكومة على عشائر شمر الجربا بالذات يعين الإنجليز على تنفيذ مشروعهم الكبير بشأن استخدام العراق كطريق قصير للمواصلات بين الشرق والغرب بواسطة تشغيل خط بواخر بين الموانى الإنجليزية والساحل السورى ، وبين أعالى نهر الفرات والخليج العربى والهند .

والملاحظ أن الإنجليز ركزوا فى ذلك الوقت عنايتهم بشدة على طريق العراق بين الشرق والغرب . واتجهت الحكومة الإنجليزية إلى إدخال مشروعهم إلى حيز التنفيذ فى أعقاب التوسع المصرى فى الشام ، حيث أن هذا التوسع قد أدى إلى أن أصبح طريقاً المواصلات بين الشرق والغرب عبر كل من العراق ومصر تحت سيطرة حكومة القاهرة ومن ناحية أخرى كان المشروع الإنجليزى لربط الشرق بالغرب — بواسطة خط بواخر يعمل فى نهر الفرات — لا يخدم هذه الأهداف فقط بل كذلك كان يمكن الإنجليز من التصدى لأية قوة مصرية تحاول عبور نهر الفرات إلى العراق حيث أن البواخر التى كانت معدة للعمل فى نهر الفرات كانت بواخر مسلحة[١].

وكان تنفيذ كل تلك المشروعات والأهداف الإنجليزية يتطلب الوصول إلى تفاهم مع العشائر الكبرى المسيطرة على الطريق بين الساحل السورى ونهر الفرات ، حيث وضعت الخطة على أساس إرسال بواخر مفككة من إنجلترا إلى الساحل السورى ومنه إلى نهر الفرات . وهذه العملية لا يمكن لها أن تتم بنجاح إلا بعد الوصول إلى تفاهم مع عشائر شمر ، وكذلك مع عشائر عنزة .

---

(١) درسنا هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابنا « المصالح البريطانية فى أنهار العراق ١٦٠٠ — ١٩١٤ » ، دراسة وثائقية للتطورات التى أدت الى احتكار بريطانيا الملاحة فى العراق ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨ .

ولهذا ، عندما اقترب موعد إرسال الباخرتين — المدّتين للعمل فى نهر الفرات — إلى العراق ، أرسلت السلطات الانجليزية إلى العراق اثنين من رجالها العارفين بطبائع العشائر وهما كريستيان رسام C. Rassam (١) ، والمستر إليوت Eliot الذى قال عنه قائد البعثة المكلفة باستخدام الباخرتين فى نهر الفرات أنه ينحدر من سلالة عربية (٢) .

كل هذه الإستعدادات تؤكد لنا أن الانجليز كانوا يفضلون وجود شيخ ضعيف فى مشيخة شمر الجربا ، ومن ثم كان القبض على صفوق على هوى الانجليز لأنه يزيح عن طريقهم زعيما صعب المراس قادراً على تهديد مشروعاتهم بخطورة . فقد كان الانجليز فى حاجة إلى تفاهم أكيد أيضاً مع عشائر عنزه حيث أن الهدوء بين هذه العشائر من جهة وعشائر شمر الجربا من جهة أخرى كان أمراً ضرورياً كل الضرورة لنجاح المشروعات الملاحية الانجليزية فى الفرات .

فهل كان من الممكن للانجليز أن يتوصلوا إلى إتفاق ترضى عنه هاتين العشيرتين المتماديتين ؟

لقد كان ذلك عسيراً ، وكان وجود صفوق فى المشيخة يجعل هذا الأمر أكثر تعقيداً وصعوبة . أما وجود شيخ آخر مكانه ، يكون أقل شهرة منه ويكون أكثر ليونة ، فانه يمهد الطرق بسهولة أمام الانجليز . ولقد كان المرشح الجديد لمشيخة شمر على هذه الصفات التى أرادها الانجليز ، ولعل هذا يفسر لنا نجاح المفاوضات التى دارت بين المسئولين الانجليز وشيخ شمر الجديد بشأن عقد صلح دائم بين شمر وعنزة فتحدثنا الوثائق الانجليزية عن أن الانجليز توصلوا إلى اتفاق يكفل لهم التنقل بين الساحل السورى ونهر الفرات دون أن يتعرضوا لأية هجمات من جانب العشائر(٣).

حقيقة أدى إبعاد صفوق عن العراق إلى تقوية السيطرة العثمانية عن ذى قبل

---

(١) مسيحى عراقى سيصبح بعد ذلك وكيلا سياسياً للانجليز فى الموصل من ١٨٣٩ — ١٨٧٢ .

(٢) F.R. Chesney : Narrative of the Euphrates Expedition, London, 1856, pp. 239-241.

(٣) Palmerston to Ponsinby, July 28, 1936, No. 63, F.O. 195/130.

فى منطقة الجزيرة العراقية وإلى تحويل الموصل — بعد طرد يحيى الجليلى منها — إلى قاعدة عثمانية هجومية ضد الوجود المصرى فى الشام. ولكن ذلك الأسلوب الذى اتبع فى القبض على صفوق كان ممقوتاً جداً لدى أهل العراق. علاوة عن أنه أسلوب مكروه بصفة عامة.

فما لاشك فيه أن تلك الأساليب التآمرية فى القبض على الزعامات الوطنية كانت تعطى الحكومة العثمانية سيطرة مؤقتة ونصراً مظهرياً. فالملاحظ أنه عندما تقع أزمة بين الناس والحكومة سرعان ماتستعيد ذاكرة الناس تلك الأساليب التآمرية التى اتبعتها الحكومة العثمانية ويكون ذلك مبرراً للتمرد والثورة واستخدام أساليب مماثلة ضد الحكومة نفسها.

وبالنسبة للعشائر العربية بالذات كان القبض على شيخها بمثل هذه الأساليب التآمرية يعتبر سقطة للحكومة لايمكن أن تغتفر، ولا يمكن أن تكسب — حكومة هذه أساليبها — ثقة وإحترام العشائر. وهذا يفسر لنا موقف عشائر شمر الجربا بعد إعتقال صفوق. فقد ظلت عشائره ثائرة على الحكومة، ولم يستطع الشيخ [1] — الذى عينه « على رضا » خلفاً لصفوق — أن يثبت أقدامه فى المشيخة، بل لقد أصبح صفوق بطلا من أبطال العرب الذى لايعرف الخداع ويشق طريقه بحد السيف بينما أصبح الأتراك العثمانيون مجرد شرذمة من الحكام الأتراك المستبدين الذين لايرعون الدين أو الخلق أو العهد. فكانت هذه الأمور عاملا هاماً فى توسيع الشقة بين الأتراك والعرب[2].

ولكن نلاحظ أنه بينما صدر حكم الأعدام ضد محمد بك (أمير راوندوز) ونفذ فيه بسرعه[3]، نجد صفوق يرسل هو وابنه فرحان إلى الآستانة ليعيشا هناك

---

(١) لم نستطع تحديد اسمه لعدم وروده فى المراجع ولقصر فترة حكمه وطغيان تاريخ صفوق عليه.

(٢) Ainsworth : A Personal Narrative of the Euphrates Expedition, vol. II, p. 319.

(٣) محفظة عابدين، ٢٥٦ ـ ٢ فى ٣ محرم ١٢٥٤/٣١ مارس ١٨٣٨، محفظة ٢٥٦ عابدين ٢٥٦ ـ ٢ فى ٢١ محرم ١٢٥٤/١٨ أبريل ١٨٣٨.

Wood to Ponsonby, September 3, 1836 (Ind. Office Rec., Fact. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 54, pp. 679-695).

فى المنفى زهاء ثلاث سنوات . حقيقة كانت إقامتهما محددة إلا أنهما كانا يتمتعان برعاية خاصة من جانب المسئولين هناك .

ولا شك أن هذا الاختلاف فى المعاملة ، كانت تتحكم فيها ظروف ذلك الوقت . وكانت ظروف جد عصيبة سواء بالنسبة للعثمانيين أو العشائر العربية أو العشائر الكردية . فقد أصبحت لدى العثمانيين حساسية شديدة ضد كل زعيم يتهم بالتعاون مع القيادة المصرية فى الشام . ولكنهم إلى جانب هذا كانوا فى حاجة ماسة إلى كل من يقدم معونة لهم ضد الوجود المصرى فى الشام . وفى هذا المجال اختلفت مكانة صفوق لدى العثمانيين عن مكانة محمد بك لديهم .

حقيقة كان محمد بك أميراً قوى الشكيمة حتى لقد كاد أن يسيطر على شمال العراق خلال العشرينات من القرن التاسع ، إلا أن فرص إتصاله بالقيادة المصرية فى الشام أصبحت قليلة جداً بعد أن أصبحت الموصل قاعدة عثمانية بعد طرد يحي الجليلى منها ، ومن ثم كان إعدام محمد بك يعنى أن أقوى شخصية فى ديار الكرد قد سقطت وأنه على بقية الأمراء والزعماء الأكراد الآخرين أن يخضعوا للسلطان العثمانى . ولقد كان فى استطاعة العثمانيين أن يسيطروا على الأمارات الكردية إذا ماوضعوا أيديهم على مقر الإمارة الكردية .

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى الحكومة العثمانية نية إستخدام القوات الكردية ضد المصريين فى الشام ، ومن ثم لم تكن هناك حاجة ماسة إلى وجود زعيم قوى كردى ليتولى قيادة قوانه الى الشام[1].

أما بالنسبة لعشائر شمر الجربا فالموقف كان يختلف . فقد كانت الحكومة العثمانية فى حاجة ماسة إلى القوات العشائرية الشمرية ، ومن ثم كان على العثمانيين أن يعملوا على كسبها إلى جانبهم ، ولو حدث أن أعدموا شيخها صفوق فان ذلك سيؤدى إلى عداء مستحكم يمنع من قيام تعاون قوى بينها وبين الحكومة . أما إذا أبقى على حياته ، وأعيد إلى منصبه فالآمال فى أن يخدم السلطان تصبح محتملة التحقيق .

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الأكراد لم يكونوا متحمسين للانتقال إلى ميادين حرب بعيدة عن مواطنهم .

وترجع قيمة عشائر شمر الجربا أيضاً إلى أن اتصالاتها بالقيادة المصرية يمكن أن تكون مباشرة حيث أن الجزيرة العراقية تربط بين العراق والشام . ومن ثم كان على العثمانيين ألا يثيروا حفيظة هذه العشائر فى هذه الظروف حتى لاتنضم عشائر شمر بأسرها إلى المصريين . وحيث أنه كان من المتعذر على الحكومة العثمانية أن توجه ضربة حاسمة إلى شمر الجربا — على شاكلة تلك الضربة التى وجهتها إلى محمد بك أمير راوندوز — فان إعدام صفوق كان سيعود بالمشكلات المعقدة وبالتالى يكون تجنب إعدامه خير للحكومة العثمانية من تنفيذه فيه .

ومن ناحية أخرى كان صفوق أكثر إدراكا لمشكلات المنطقة من غيره من شيوخ العشائر ، ومن ثم كان كسبه إلى جانب السلطان يعطى الحكومة العثمانية إمكانات كبيرة سواء من حيث الدفاع عن العراق أو الهجوم على الشام .

وإذا ما نجح العثمانيون فى كسبه إلى جانبهم ، وفى خوض المعركة المقبلة فى صف الجيش العثمانى ، فان النفقات التى ستدفقها عليه الحكومة ستكون قليلة حيث أن العشائر تتكفل بنفقات تحركاتها خاصة وأن ميدان المعركة المتوقعة ليس ببعيد جداً عن الجزيرة العراقية .

وكان المسئولون العثمانيون يعتقدون أن إقامة صفوق فترة مناسبة فى العاصمة العثمانية (الآستانة) ومشاهدته لروائعها ، وزيارته للسراى السلطانى الفخم سيغير من نظرته نحو الأتراك العثمانيين ولهذا كان من الأمور التى عنى بها المسئولون الأتراك أن يرى صفوق مايجعله يحترم الدولة العثمانية ويشعره بعظمتها واتساع ثرائها وقدراتها ، وأن يلقوا فى قلبه الخضوع المطلق للسلطان العثمانى . ولقد كان من بين الجهات التى قام صفوق بزيارتها السراى السلطانى نفسه . وعندما ذهب صفوق إلى هناك بهرته الرياش ومظاهر العظمة والملك وكان يتلفت يميناً ويساراً على عادة البدوى عندما يؤخذ بمثل هذه المظاهر ، وكان ذلك من دواعى اشمئزاز كبار رجال السراى . ولكنهم أخفوا امتعاضهم ، لأنهم كانوا يسعون إلى كسب ثقته .

ويبدو أن مناقشات عديدة دارت بين صفوق والمسئولين العثمانيين بشأن موقفه فى المستقبل من الصراع العثمانى المصرى . فقد أفرج عنه العثمانيون قبيل وقوع معركة

نوفمبر ١٨٣٩ . وأعادوا إليه المشيخة . وقام هو من جانبه بإعداد رجاله للمشاركة في المعركة المقبلة .

والمعروف أنه في أوائل ١٨٣٩ كان الجيش العثماني قد أخذ يتحرش بالقوات المصرية في شمال الشام حتى عبرت القوات العثمانية نهر الفرات ، وأصبح من الضروري خوض معركة حاسمة بين الطرفين . فكان من الطبيعي أن تراقب القيادة المصرية كل تلك التحركات وغيرها من التحركات التي قد تهدد الجيش المصري في الشام . وكان التهديد الموجهة إلى المصريين من جانب العراق قوياً . فقد كان والى الموصل العثماني (محمد اينجه بيرقدار) على رأس بعض الكتائب التي عبرت نهر الفرات إلى ضفته الغربية ، كما كانت هناك الشائعات القوية التي تردد أن « على باشا رضا » سيقود قوة كبيرة ليشترك بها مع الجيش العثماني الرئيسي الذي كان بقيادة حافظ باشا .

وجاءت الأنباء إلى القيادة المصرية أيضاً بأن عشائر شمر الجربا بقيادة صفوق ستنتشر على طول المنطقة الممتدة بين حماه ودير الزور . ولو ألقينا نظرة سريعة على هذه المنطقة — التي قيل إن صفوق سيتولى أمرها — لوجدناها تلائم حرب الصحراء التي كانت تتقنها تلك العشائر العربية . وأغلب الظن أن الخطة العثمانية وضعت على أساس أن تعمل العشائر العربية وراء خطوط مواصلات الجيش المصري منطلقة من قواعدها الصحراوية(١) .

ويبدو أن القيادة العثمانية كانت قد عولت كثيراً على ما سيقدمه صفوق من مجهودات عسكرية ، حيث أن حافظ باشا — القائد العام للجيش العثماني — بعث ابنه ليكون مع صفوق في تلك الجهات(٢) .

وتشير التقارير العديدة التي تلقيها القيادة المصرية عن تحركات قوات شمر إلى أن هذه القيادة كانت قد أولت عناية كبيرة جداً لتحركات هذه العشائر . وهذا يرجع إلى أن عيون المصريين في العراق كتبوا يقولون أن هذه القوات الشمرية هي أخطر ما في العراق من القوات الضاربة ، وأن ما لدى « على باشا رضا » والى بغداد

---

(١) Werry to Ponsonby : May 4, 1839, F.O. 78/371.

(٢) Ibid.

من قوات ليست سوى قوات من المرتزقة (الباشيبوزق) . أما عشائر شمر الجربا فكانت كثيرة العدد سريعة الحركة قادرة على إنزال خسائر كبيرة بالقوات المصرية فى وسط الشام ، فى الوقت الذى يكون فيه الجيش المصرى منشغلا فى المعركة وقد وصفت القيادة المصرية خطورة التحركات الشمرية بشكل دقيق عندما قالت أن تلك الشائر لو انطلقت من نهر الفرات صوب الشام فانها ستحول المنطقة الممتدة « من المعرة إلى الشام خراباً بلقعاً »(١) .

ولقد كان انتقال القوات الشمرية من الجزيرة العراقية إلى ضفاف نهر الفرات أمراً يسيراً حيث أنها كانت تسير فى طرق صحراوية اعتادت على مثيلاتها . ولـكن لكى تنتقل هذه القوات إلى الضفة الغربية عبر نهر الفرات كان لابد لها من استخدام عدد من السفن . فطلب صفوق من حافظ باشا — قائد عام القوات العثمانية — أن يزوده بالسفن اللازمة لنقل قواته . ولكن اعتذر له حافظ باشا بأن جميع السفن التى كانت تحت يده منهمكة فى نقل الجيش الرئيسى من ضفة نهر الفرات الشرقية إلى ضفته الغربية . فاضطر صفوق إلى الانتظار بعض الوقت حتى يتمكن من تعدية قواته (١) .

كان على القيادة المصرية فى الشام أن تواجه قوات شمر الجربا بقوة كافية لردها إذا هاجمت منطقة حماه . وكان فى حماة حينذاك الآلايين من الفرسان . وبسبب توقع هجوم شمرى على حماة فقد تقرر عدم اشتراك هذين الآلايين فى المعركة المقبلة . بل صدرت إليهما الأوامر بعدم التحرك من حماه والدفاع عنها .

وبعد دراسة أخرى للامكانيات الدفاعية المصرية ضد القوات العشائرية الشمرية وجد القائد العام للجيش المصرى (ابراهيم باشا) أن هذين الآلايين لا يكفيان لصد هجوم كبير شمرى . فطلب إبراهيم باشا من أخيه « عباس باشا » أن يبعث إليه من

---

(١) من ابراهيم الى عباس ١٥ صفر ١٢٥٥/١٨٣٩م ، محفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة تركية — ١ .

(٢) من محمد بجونى فى ٢٠ صفر ١١٥٥ هـ ، محفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة — ١ .
من محمد بجونى فى ٢٧ صفر ١٢٥٥هـ ، محفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة .
من محمد بجونى فى ١٢ ربيع الأول ١٢٥٥ ، محفظة ٢٥٧ عابدين — ١ .

مصر بالآلايين الرابع والعشرين والحادى والثلاثين وبطاريق مدافع وبعض القوات العشائرية . ويبدو أن إبراهيم كان يرى أن الدفاع عن حماه يجب أن يكون بالقوات النظامية . وإما قتال شمر فى الصحراء أو مطاردتها ليس فى مقدور هذه القوات النظامية وإنما يجب أن تقوم به قوات بدوية مهدت فى حرب الصحراء على شاكلة شمر الجربا نفسها .

ولكن تبين أن سحب هذين الآلايين من مصر يعنى تجريدها من قوة دفاعية لازمة لمواجهة الطوارىء . ولاشك أن تجريد مصر من قوة عسكرية دفاعية منظمة يعنى تعريض قلب البلاد المصرية لخطر داهم لو حدث ونزلت قوات معادية إليها ، ومع هذا وجد « ابراهيم » أن ظروف المعركة المقبلة ، وتهديد شمر لحماة يقتضى إرسال هذين الآلايين وبطاريق مدافع إلى الشام على أن تدبر حكومة القاهرة قوات جديدة للدفاع عن مصر عند الحاجة إلى ذلك . ولهذا اقترح ابراهيم تسليح عمال الورش بالبنادق وتدريبهم على الأعمال العسكرية(١) .

وحيث أن التقارير الواردة إلى القيادة المصرية عن تحركات « شمر الجربا » كانت مضطربة ، وكانت هناك إشاعات عن أن صفوق قد لا يشترك فى المعركة المقبلة فإن المسئولين فى القاهرة تباطأوا فى إرسال القوات التى طلبها ابراهيم . ولكن لم تلبث التقارير أن أكدت أن صفوق عبر نهر الفرات بقواته صوب نزيب . وأصبح على المسئولين فى القاهرة تدارك الأمر بسرعة ، فأرسلوا على جناح السرعة الآلاى (الحادى والثلاثين) إلى الشام ومعه بطاريق مدافع وقوات عشائرية مصرية(٢) .

وعلى أى حال ، كانت عشائر شمر الجربا أداة من أدوات تشتيت المجهودات الحربية المصرية . ولكن المعركة الحاسمة التى كانت ستقرر مصير المنطقة هى تلك التى كان يستعد لها الجيشان المصرى والعثمانى بالقرب من نزيب . ولقد دارت المعركة فعلا فى ٩ يونيو ١٨٣٩ وانتهت المعركة باندحار شامل للجيش العثمانى .

---

(١) من ابراهيم إلى عباس : ١٥ صفر ١٢٥٥/١٨٣٩ ؛ محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة — ١ .

(٢) محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة — ١٢ ؛ من المعية إلى السر عسكر فى ١٩ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ دفتر ٦ عابدين وثيقة ١٠٩ .

وخلال هذه المعركة كانت عشائر « شمر الجربا » قد أصبحت على مقربة منها. وشاهد رجال شمر كيف نزلت الهزيمة الحاسمة بالعثمانيين . وأغلب الظن أن صفوق لم يلق بقواته فى المعركة ولكن موقفه بعدها أصبح حرجاً ، فهو من وجهة نظر القيادة المصرية المنتصرة كان مع جيش العدو . ومن ثم فيجب مطاردته هو الآخر . وفعلا وجهت القيادة المصرية ضد شمر قوة من العشائر التى جاءت مصر لغرض مقاتلة العشائر الموالية للعثمانيين . وكان صفوق قد أدرك أن لا قبل له بالتصدى للجيش المصرى المنتصر ، فانسحب بقواته مسرعاً تاركا دواب عشيرته لدى بعض العشائر المخلصة له[1]. ولما لم تجد القوات المصرية أثراً لعشائر شمر الجربا أنزلت العقاب بالعشائر التى أخفت دواب شمر لديها[2] . وكان طبيعياً أن تكون المطاردة محدودة الأهداف حيث أن الحكومة المصرية كانت لا تفكر فى مد سيطرتها على العراق .

وتعتبر الفترة الواقعة بين ١٨٣٩ — ١٨٤٢ فترة تحول خطيرة فى تاريخ المشرق العربى . فقد أدت هزيمة العثمانيين فى نزيب إلى إقناع الحكومة العثمانية بأنها لن تستطيع التغلب على المصريين إلا بالتعاون مع القوى الأوربية الكبرى . وكانت انجلترا مستعدة للتدخل لصالح السلطان العثمانى وضد مصالح مصر الفتية حتى تضمن انجلترا لنفسها اليد العليا فى المشرق العربى . وفعلا تدخلت الدول الكبرى — بتوجيه من انجلترا — وفرضت على مصر الإنسحاب من الشام ومن شبه الجزيرة العربية .

وترتب عن إنسحاب المصريين من المشرق العربى أن تفرغت الحكومة العثمانية — إلى حد كبير لتحقيق سيطرتها على ولاياتها العربية عن طريق القضاء على العصبيات المحلية فيها . وقد تولى تنفيذ هذه السياسة فى العراق نجيب باشا والى بغداد الذى خلف على باشا رضا فى عام ١٨٤٢ م. واستمر فى منصبه حتى عام ١٨٤٧ .

---

(١) من محمد معجون الى ابراهيم باشا ٢٩ جمادى الثانية ١٢٥٥هـ/٩ سبتمبر ١٨٣٩ ، محفظة ٢٥٨ عابدين ص ١ .

(٢) ابراهيم الى محمد معجون : ٧ رجب ١٢٥٥ / ١٧ سبتمبر ١٨٣٩ ، محفظة ٢٥٨ عابدين ص ١٤ .

ولقد كانت الظروف تضع كلا من نجيب وصفوق على طرفى نقيض . فقد كان نجيب باشا يسعى إلى القضاء على العصبيات المحلية بينما كان صفوق — منذ هزيمة العثمانيين فى نزيب — يستخف بهم ثائراً عليهم[١] . وكان من المنتظر أن يوجه نجيب باشا جهده ضد صفوق ولكن نجده على العكس من ذلك . ففى الوقت الذى أقدم فيه نجيب باشا على إعدام سليمان الغنام — شيخ عشائر العقيل[٢] — نجده يحاول أن يحسن من علاقاته مع صفوق . ويبدو أن نجيب باشا كان قد أضمر فى نفسه القضاء على صفوق ولكنه آثر أن يخفى أهدافه هذه إلى أن تحين الفرصة ولهذا أعاد صفوق إلى مشيخة الجربا وخلع عليه[٣] .

ويبدو أن صفوق أعتقد أنه يستطيع الحصول على إمتيازات جديدة من نجيب باشا فى مثل هذه الظروف . وفعلا طلب صفوق ذلك منه . ولكنه وسط الوكيل السياسى الإنجليزى فى بغداد الميجور روبرت تيلر . . . . R. Taylor لدى نجيب باشا من أجل الحصول على طلباته[٤] .

ومع أننا لاندرى هل نجح روبرت تيلر فى وساطته أم لا ، فإنه مما لا شك فيه أن هذه الوساطة أساءت إلى صفوق ، فقد كان الولاة العثمانيون سيئو الظن بتلك العلاقات الودية التى كانت بين الدبلوماسيين الإنجليز والزعامات المحلية[٥] .

---

(١) A.H. Layard : Nineveh and its Remains, London, 1848, vol. I, pp. 93-97.

(٢) Taylor to Secret Committee, November 24, 1842 (Political and Secret Department Records, Letters from Agent at Bagdad, vol. 13, pp. 115-117.

(٣) Taylor to Secret Committee, August 22, 1842 (Ibid., pp. 81-85).

(٤) Taylor to Secret Committee, October 18, 1834 (Pol. and Sec. Dep. Recs., Lets. fr. Pol. Ag. at Bag., vol. 13, pp. 231-235).

(٥) زادت هذه الظاهرة بوضوح فى القرن التاسع عشر . ومن ذلك أن ناصر السعدون — شيخ عشائر المنتفق — أن يقبل دعوة نامق باشا له إلا بعد أن حصل على تأكيد بسلامته من القنصل الانجليزى فى بغداد . كذلك وسط « مطلق آل كريدى » — شيخ عشائر =

ويبدو أن نجيب باشا كان يدبر المتاعب لصفوق ومن جهة أخرى كانت أحوال صفوق نفسه فى تدهور مستمر منذ مجىء نجيب باشا إلى العراق . فقد ظهر منافس خطير لصفوق فى شخص « نجريس » المطالب بالمشيخة . وكثيراً ما واجه صفوق مثل هذه المواقف ، ولكنه فى هذه المرة كان يبدو ضعيف الجانب أمام خصمه « نجريس » الذى استطاع أن يكسب إلى صفه قسما كبيراً من العشائر .

وخلال هذه الأزمة بدا واضحاً أن صفوق فى حاجة إلى قوة تشد أزره لكى يستعيد سيطرته الكاملة على عشائره . ويبدو أن صفوق وجد أنه لو قدم خدمات لنجيب باشا ربما استطاع أن يستعيد قوته وانفرد بالمشيخة . ولهذا أبدى صفوق استعداده لمساعدة نجيب باشا فى صد عشائر عنزة التى هبطت الجزيرة العراقية غازية ناهبة . ولكن نجيب باشا فضل أن يواجه عنزة بإمكانياته هو وبقوة العشائر البدوية الموالية له حتى لا يمكن صفوق من استعادة تفوقه وقوته(١) .

ولقد زاد موقف صفوق بعد ذلك تدهوراً بسبب بعض الأمور التى كانت خارج إرادته . فقد ضنت الطبيعة على مراعى شمر بالأمطار لمدة عامين متتاليين حتى لقد أصبح صفوق نفسه فى عوز شديد لدرجة أنه اضطر إلى بيع «خلخال» زوجته(٢) فى الموصل ليشترى به قمحاً (٣) .

ووجد نجيب باشا فى هذه الظروف فرصة مواتية لإرهاق آل محمد (البيت الحاكم فى شمر الجربا) إرهاقاً قد يمهد للقضاء على صفوق . فقد كان المعتاد أو يتخذ

= الخزاعل ـ القنصل العام الفرنسى فى بغداد ليشرح قضيته ليصل المشاكل بينه وبين والى بغداد انظر :

Kemball to Erskine, February 24, 1864, No. 4, Précis of Turkish Arabia, Paragraph No. 142, F.O. 195/803, A. and Rawlinson to Secret Committee, December 26, 1843 (Political and Secret Department Records, Letters from the Persian Gulf, vol. 13, pp. 243-254).

(١) Rawlinson to Canning, June 10, 1842 (Pol. and Sec. Rec. Dept., Sec., Lets. fr. Ag. at Bagdad, vol. 14, pp. 55-63).

(٢) من عادة فتيات وسيدات العراق لبس الخلخال الذهبى ويسمى فى العراق (حجل ، حجول) .

(٣) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 93-97.

الوالي جانب أحد المتنافسين على المشيخة ، ولـكن نجيب باشا لم ياخذ جانب صفوق ولاجانب نجريس وإنما أسند مشيخة شمر الجربا إلى فرحان بين صفوق ، وأخذ نجد يحث فرحان على أن يثبت مقدرته على الوقوف على قدميه فى مواجهة كل من أبيه صفوق ، وعمه نجريس . ولـكن « فرحان » لم يسر فى هذا الطريق الذى رسمه نجيب باشا له . وظل مخلصاً لأبيه ولفـكرة وحدة العشيرة تحت زعامة صفوق . بل لقد حاول «فرحان» أن يصفى المشاكل التى كانت بين صفوق « ونجريس » حفاظاً على كيان البيت الحاكم وعلى كيان العشائر الشمرية ويبدو أن صفوق وجد فى هذا السعى الجيد فرصة لتحقيق أهدافه :

فقد وجه « صفوق » دعوة « نجريس » لعقد اجتماع كبير لشيوخ عشائر شمر لتصفية الضغائن ولـكن نجريس رفض قبول الدعوة لأنه كان يدرك أن « صفوق » مستعد لأن يقدم على أى عمل طائش فى سبيل استعادة انفراده بالمشيخة . ولـكن صفوق أصر على أن يكرر الدعوة إليه ، وبعث بابنه فرحان ليطمئنه وليزيل ما لديه من مخاوف .

ولقد كان « فرحان » يخشى أن يحنث أبوه بوعود ، وأن يغدر « بنجريس » فيحمله وزر هذه الوساطة . ولذلك أخذ « فرحان » العهود على أبيه بألا يصيب نجريس بأى أذى إذا ما حضر الأخير فى صحبته . وعلى هذا الأساس ذهب «نجريس» مع فرحان إلى الاجتماع ، ودخل خيمة صفوق ، وجاس الرجلان كل بجانب الآخر . وبعد فترة وجيزة استل صفوق سيفه وقتل نجريس رغم توسلات فرحان[١] .

لقد كان صفوق يعتقد أنه بقتل نجريس — مهما كانت الوسيلة — يستطيع أن يستعيد السيطرة الـكاملة على عشائر شمر الجربا . ولـكن ذلك العذر لم يكن مقبولا لدى العشائر البدوية الأمر الذى أدى إلى زيادة ضعف مكانة صفوق عن ذى قبل . وأخذت العشائر الشمرية تنحاز إلى مطالب جديدة بالمشيخة هو « عيوضة » الذى ثبت أقدامه فى نواحى سنجار وشمال العراق .

---

(١) Kemball to Cowley, September 29, 1847, F.O, 195/272.

(٢) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 111-114.

(٢) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 111-114.

وعندما علم نجيب باشا — والى بغداد — بما أقدم عليه صفوق نحو نجريس لم يلق اللوم على صفوق ، وقبل من صفوق أعذاره ومبرراته ، بل وثبته فى المشيخة ، وأردف ذلك بأن أرسل إليه قوة عسكرية حكومية تحت قيادة « إبراهيم أغا » .

لقد كان نجيب باشا يلعب لعبة كبيرة . واختياره إبراهيم أغا بالذات ليتولى قيادة القوات الحكومية الذاهبة لصفوق كان الخطوة الأولى فى تنفيذ مؤامرة مدروسة ضد صفوق[١] . فقد كان «إبراهيم أغا» هذا ضابطاً من ضباط (الهايتا) . وكان « إبراهيم أغا » شركسياً مسيحياً ثم أسلم . واشتهر بتنفيذ مؤامرات ناجحة ضد الزعماء الوطنيين الثائرين على السلطان العثمانى . وكان الرجل ماهراً فى التخلص من هؤلاء الزعماء بطريقته الخاصة . فكان يحتال بطريقة أو بأخرى لكى يصل إلى مجلس الأمير الثائر ، ثم ينقض عليه فيصرعه بضربة من سيفه تقضى عليه أو بإطلاق الرصاص عليه فينتهى أمره فى سرعة خاطفة ، ثم يعلن أن ذلك كان بأمر السلطان العثمانى ، ويأخذ رأس الضحية وينصرف بها إلى المسئولين العثمانيين الذين كانوا ينتظرون نجاح مهمته . وهذا ما فعله مع شيخ « زاخو »[٢] .

تلك كانت مهارات « إبراهيم أغا » ، وذلك كان تاريخه ، ويبدو أن صفوق لم يكن يعرف عنه شيئاً حيث أنه قد عزم على الاعتماد عليه فى بعض العمليات العسكرية بينما كان « إبراهيم » خلال وجوده لدى صفوق يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ المؤامرة .

وجاءت هذه الفرصة عندما اشتبكت قوات صفوق — بقيادة إبنه فرحان — مع عشيرة ثائرة . وعند ما ابتعد فرحان بقواته ، انقض « إبراهيم أغا » على صفوق فصرعه وقطع رأسه وأخذها معه إلى بغداد . وهكذا كانت نهاية « سلطان البر »[٣] .

ويجدر بنا هنا أن نقيم أعمال صفوق : هل كانت كل تلك الحركات الكبرى التى قام بها صفوق من أجله هو فقط ومن أجل مصلحته الشخصية أم أنها كانت

---

(١) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, p. 114.

(٢) أصبحت زاخو (فى شمال العراق) منذ ذلك الوقت تحت الحكم المباشر العثمانى .

(٣) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, p. 114.

أيضاً من أجل عشيرته ورفع شأنها بين مختلف العشائر ؟ كما نتساءل أيضاً : ألم يكن صفوق أبعد هدفاً وأعمق فكرة عندما دافع عن العراق ضد الفرس ، وعندما تعاون مع القيادة المصرية فى الشام ضد الحكم العثمانى فى العراق .

لا شك أن صفوق كان — رغم بداوته — من معدن فريد بين شيوخ العشائر . وأنه كان واسع الأفق إذا ما قورن بغيره من شيوخ العشائر الآخرين وذلك لطول احتكاكه بالقوى العديدة التى كانت فى داخل العراق وخارجه . ولا شك أن صفوق شعر بقيمة العراق له ، وبقيمته للعراق ، وبأنه شخصية بذلت الكثير من أجل العراق فيحق لها أن تشارك فى أموره وتوجيه سياسته .

ولكن سيطرة الفكر البدوى عليه ، وعدم قدرته على الارتفاع — بسبب ذلك — إلى مستويات الدبلوماسية العالية حينذاك كان يحول دون وصوله إلى مركز كبير فى مجالات الحكم والإدارة . ثم إنه كشيخ عشيرة بدوية كان ينظر إليه من جانب أهل المدن بعين الغدر والريبة ، لأن البدو بالنسبة لأهل المدن — كانوا خطراً داهماً لا يجب أن تفتح المدينة لهم أبوابها وإلا استباحوها .

ولقد كان لصفوق عمليات قاسية ضد بعض المدن العراقية مثل بغداد وتكريت ، حتى أن أهل تكريت اضطروا إلى أن يحفروا خندقاً للدفاع عن المدينة ضد هجماته(١) .

ومن ثم لم يكن صفوق يمتلك مقومات الزعيم الوطنى القادر على أن يحل محل الحكم العثمانى . إلا أن مصرعه على تلك الصورة كان عاملا هاماً جعل صفوق أسطورة البادية ، كما أنها عمقت الهوة بين الأتراك وآل محمد (شيوخ شمر الجربا)(٢) .

وبعد مصرع صفوق أسند نجيب باشا مشيخة عشائر شمر الجربا إلى عيوضة الذى كان أقوى من نافس صفوق . بينما كان فرحان بن صفوق قد فر من وجه الحكومة حتى لا يلقى نفس مصير أبيه . ولكن سرعان ما غير نجيب باشا رأيه وعزل عيوضة وأسند المشيخة إلى فرحان(٣) . وأغلب الظن أن نجيب باشا لم يفعل

---

(١) Jones, J.F. : Selections from the Records of the Bombay Government No. XLIII. Memoirs Bombay, 1857, p. 23.

(٢) Rawlinson to Cowely : October 27, 1847. F.O. 195/272.

(٣) Saldanha : Precis of Turkish Arabia, August 25, 1849, Nos. 25-26 ; Kemball to Cowely : September 29, 1947, F.O. 195/272.

هذا إلا ليستعيد ثقة عشائر شمر الجربا التي كانت متملقة بصفوق وبأمجاده رغم أخطائه في أواخر أيامه . ثم أن فرحان نفسه كان صاحب تجارب وخبرات وصفات تجعله جديراً بالمشيخة سواء لدى الحكومة العثمانية أو لدى أهل العشائر أنفسهم .

ففرحان هو أحد أبناء صفوق من زوجته الحضرية. وقد شارك أباه سنوات النفي في الآستانة (١٨٣٤ — ٨) . ويبدو أن مظاهر الأبهة والعظمة التي شاهدها في العاصمة العثمانية جعلته يعتقد أن الدولة العثمانية لا تقهر . ومن ناحية أخرى أعتقد في ضرورة إيجاد أسس قوية للتفاهم بين الحكومة العثمانية في العراق والعشائر البدوية .

والحق ، إن أفكار الشيوخ العشائريين في القرن التاسع عشر كان قد أصابها تغير واضح عنها في القرون العثمانية السابقة . فلقد هبت على العراق في القرن التاسع عشر تيارات عديدة قوية كانت تهز أفكار الناس هزاً ، وكانت الأزمات الكبرى التي تقع فيها الدولة العثمانية تصل بعض أنبائها إلى العراق ، وكان ظهور القوى الأوربية بوضوح في الخليج العربي والشام من الأمور التي جعلت الزعامة الوطنية في المشرق العربي تعيد النظر في بعض أفكارها وإتجاهها . وكانت الدولة العثمانية نفسها تحاول أن تغير من طريقة حكمها ومن أساليب الإدارة لعلها تستطيع أن تصل إلى مستوى العصر .

ولا شك أن التغييرات التي طرأت على الدولة بسبب الإصلاحات والتنظيمات قد أثرت في أفكار شيوخ العشائر فجعلتهم يختلفون إلى حد ما عن أسلافهم في القرون العثمانية السابقة ويمثل فرحان نموذجاً لهذا النوع الجديد من الشيوخ الذين حاولوا التفاهم مع الحكومة وأن يحافظوا على كيان عشائرهم في آن واحد . فكان طبيعياً أن يجد نفسه في كثير من الأحوال يعيش في متناقضات شديدة ويعاني من إتجاهات متعارضة كل التعارض .

ولقد كان فرحان مخلصاً في أن يأخذ ببعض سياسات الحكومة وخاصة السياسة الهادفة إلى إستقرار العشائر في أرض محددة تقوم فيها بالأعمال الزراعية ، فتكف العشائر بالتالي عن عمليات الغزو ، وتصبح مصدر إنتاج وعاملا من عوامل الهدوء في المنطقة . ولقد أدى ذلك إلى أن يزداد التفاهم بين فرحان والحكومة حتى لقد

أقدمت الأخيرة على خطوات هامة فى هذا الصدد فقد اتفقت الحكومة معه على أن يحصل على مرتب شهرى ينفق منه على نفسه وعلى أسرته فى مقابل عدم الأقدام على أية تحركات عسكرية ضد العشائر المجاورة وضمان الهدوء فى ديرته[1] . ولقد سار هذا التفاهم بين فرحان والحكومة إلى ددجات بعيدة . فقد شارك فرحان الحكومة فى الضغط على عشيرة حمود — وهى عشيرة شمرية -- لإرغامها فى رد ماسلبته من أموال الحكومة[2].

ومن ناحية أخرى طلبت سلطات الآستانة — فى محاولاتها للتفاهم مع القوى العشائرية — من والى الموصل أن يبعث ثلاثة من أولاد الأعيان ومن أسرة الجربا الحاكمة ليقيموا فى الآستانة وليلحقوا بمدرسة العشائر التى كان الهدف منها ربط شيوخ المستقبل بالولاء للسلطان العثمانى .

ولكن المشكلة العويصة هى : هل كانت العشائر الشمرية على استعداد لقبول تلك الاتجاهات التى كانت تعتبر تقدمية إلى درجة كبيرة حينذاك .

والحق ، كانت هناك عدة عوامل تحول دون نجاح فرحان فى إقناع كل عشائره بالسير فى تلك الاتجاهات . وأولى هذه العوامل أن عشائر شمر الجربا كانت كبيرة العدد ، ومراعيها المترامية فى الصحراء لا تدخل ضمن الوادى المزروع . والمعروف أن العشائر البدوية عرضة فى كل وقت لانفصال بعض أجزائها عنها الأمر الذى يجعل موقف شيخ العشيرة حرجا ، حيث أنه يظل مسئولا عن أعمال تلك العشائر رغم انفصالها عن بيت الرئاسة .

ومثل هذه الظروف كفيلة بأن تخلق الزعيم الذى ينافس فرحان ويتطلع إلى المشيخة . ولقد تعرض فرحان لأزمات شديدة من هذا القبيل . فقد اتخذ أخوه نايف طريقاً خاصاً به على رأس بعض العشائر الشمرية مثيراً الفوضى والأزمات

---

(١) Kemball to Bulwer : No. 27, Sept. 25, 1861, F.O. 195/676.

(٢) Ross : Letters from the East, p. 61 ; Walpole : vol. I, pp. 339-340 ; Layard : Discoveries, pp. 268-269.
Rassam to Canning : No. 8, April 25, 1852, F.S. 195/394.

(٣) Rassam to Bulwer : Sept. 28, 1863, F.O. 195/752.

ليثبت للحكومة أن فرحان عاجز عن القيام بواجبه كشيخ لعشائر شمر الجربا لعل ذلك يؤدي إلى صدور قرار بعزله . ولكن يبدو أن نايف كان غير قادر على التغلب على فرحان ولا بالقادر على أن يفرض نفسه على الحكومة ، فلم تلبث تمرداته إن هدأت بعد وقت قصير(١) .

وإذا كانت تمردات « نايف » قليلة الخطر على فرحان أو على تماسك عشيرة شمر الجربا ، فإن تمردات أخيه الثاني « عبد الكريم » كانت على جانب كبير من الخطورة ، حيث أن التنافس بين « فرحان » و « عبد الكريم » لم يكن تنافساً على المشيخة فقط — مثلما كان عليه الحال من قبل — وإنما كان يقوم على أساس اختلاف وجهات النظر بالنسبة لمستقبل العشيرة ، وقد برزت هذه الخلافات بصورة خطيرة عندما تولى مدحت باشا - المصلح التركي المشهور - حكم بغداد ، ١٨٦٩(٢) .

فقد عقد مدحت باشا العزم على أن ينفذ سياسة تؤدي إلى استقرار العشائر في الزراعة . ولهذا عرض على « فرحان » مساحة مناسبة من الأراضي الزراعية لتستقر فيها عشيرته بالقرب من نهر دجلة . وقد قبل فرحان هذا العرض الأمر الذي شجع مدحت على المضي في مشروعه . ولكن قسما كبيراً من العشائر الشمرية لم يقبل هذه السياسة . فكان ذلك فرصة سانحة لظهور زعامة جديدة تدافع عن وجهة نظر هذه العشائر . وكان عبد الكريم — أخو فرحان — معترضاً على تلك الاتجاهات

---

(١) Kemball to Bulwer : No. 2, January 30. 1861, F.O. 195/676.

وتجدر الإشارة إلى أن عشائر شمر كانت تتعرض من وقت لآخر لضغط عنيف من جانب عشائر عنزه عدوتها التقليدية ولقد تعرضت شمر الجربا لتعديات عنيفة من جانب عشائر عنزه في ١٨٥٨ في نواحي الموصل . ويبدو أن فرحان طلب من والي بغداد أن يعبر بعشائره إلى ماوراء بغداد ، ولكن الوالي رفض لأنه كان يخشى من الفوضى التي ستترتب عن انتقال شمر إلى تلك الجهات ، وهذا يدلنا عن أن عشائر شمر الجربا تحت قيادة فرحان كانت أضعف شوكة منها عندما كانت تحت قيادة صفوق .

انظر :

Kemball to Bulwer : No. 2, January 30, 1861, F.O. 195/676.
Kemball to Alison : No. 5, February 8, 1858, F.O. 195/577.
Kemball to Lyons : No. 41, October 17, 1866 (Précis of Turkish Arabia. pp. 72-73). Kemball to Bulwer, January 30, 1861, No. 2, F.O. 195/676.

(٢) حكم حتى ١٨٧٢ .

الحكومية . فتزعم عبد الكريم ثورة كبيرة ، ونادى فى العرب أن مشروعات مدحت باشا لا تهدف إلا إلى القضاء على تقاليدهم البدوية — التى هى خير من أية تقاليد أخرى من وجهة نظره . كما دعا العرب إلى أنه قد آن الأوان لأن يقف العرب وقفة رجل واحد ضد الحكومة التركية . ولقيت نداءاته هذه آذاناً مصغية لدى العشائر التى تمسكت ببداوتها[1] .

وكانت العلاقات الاجتماعية ذات أثر كبير فى تصاعد الحركة الثورية التى قام بها عبد الكريم . فقد كان عبد الكريم معتزاً بأن أمه هى عمشة العربية الأصيلة ، بينما كان فرحان من زوجة أخرى لصفوق كانت حضرية . وكان عبد الكريم يفخر بأنه لم يذهب إلى الآستانة ولم يتطبع بطبائع الأتراك . وكان المعروف عن فرحان أنه قد تقلد الرتب العثمانية ، كما كان عبد الكريم ينعى على أخيه فرحان أنه كان يأخذ مرتباً شهرياً من الحكومة[2] . ومثل هذه الدعايات تستطيع أن تجذب إليها الأسماع فى ذلك المجتمع العشائرى حينذاك . ولكنها من ناحية أخرى لا تستطيع أن تكسب كل القلوب ، حيث أن الفترة كانت فترة انتقال . وكان الناس يريدون التطور والتقدم وهم عاجزون عنه ، وخائفون على تقاليدهم من ذلك التطور والتقدم كانوا معتزين بأنفسهم ويرغبون رغبة صادقة فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . ولكنهم أضعف من أن يفرضوا ذلك على الحكومة العثمانية ذات الإمكانات العسكرية الواسعة . ولهذا انقسمت العشائر الشمرية بشدة على أنفسها ولكن فى تردد واضطراب ، فلا استطاع فرحان أن يقنع عبد الكريم بخطىء مسعاه ، ولا استطاع عبد الكريم أن يقنع فرحان بفكرته . وظل كل منهما متمسكاً بقضيته .

وهناك أسباب أخرى قيل أنها أدت إلى ثورة عبد الكريم ومنها ما ذكره القنصل البريطانى فى بغداد هربرت فقد قال إنه كان من المتعارف عليه أن يدفع العقيل — أدلة القوافل العاملة بين العراق والشام — مبلغاً من المال إلى شيوخ شمر لضمان سلامة القوافل أثناء مسيرتها فى أراضى شمر . ولكن يبدو أن «العقيل» قدموا المبالغ السنوية لفرحان وليس لعبد الكريم . فانقض عبد الكريم على إحدى

---

(١) Herbert to Elliot : August 2, 1871, No. 36, F.O. 195/949.

(٢) Herbert to Elliot : August 2, 1871, No. 36, F.O. 195/949.

القوافل وتهبها بادئاً بذلك ثورته(١).

وقد كان مدحت باشا شديد الحساسية لأى تهديد لطرق المواصلات التجارية بين العراق والشام حيث أنه كان معنياً كل العناية بتأمين هذه المواصلات البرية والنهرية عاملا على رفع العراق إلى المستوى الذى يستطيع به أن ينافس قناة السويس طريق المواصلات العالمية. فلقد أدى افتتاح قناة السويس فى ١٨٦٩ إلى حث الحكومة العثمانية ومدحت باشا إلى العمل على تنشيط التجارة العالمية عبر العراق(٢) وهذا لا يتأتى إلا باستتباب الأمن فى الطرق العامة للمواصلات عبر العراق. ومن ثم كانت تحركات عبد الكريم تثير الاضطراب فى المشروعات العثمانية.

ومن ناحية أخرى وقعت ثورة عبد الكريم فى الوقت الذى كانت فيه القوات العثمانية قد تحركت من العراق للسيطرة على الإحساء(٣) فأعلن مدحت أن عبد الكريم أصبح خارجاً على القانون وأعد العدة لتوجيه ضربة قوية له (١٧/٧/١٨٧١)، وأعلن عن مكافأة قدرها عشرة آلاف قرش لمن يأتيه بعبد الكريم حياً، وبنصف هذه المكافأة لمن يأتيه به ميتاً(٤).

ويبدو أن الخطوات التى اتخذها مدحت ضد عبد الكريم كانت سريعة المفعول فقد أخذت العشائر تنفض عنه حتى أصبح من الواضح أنه لا يستطيع الصمود طويلا أمام قوات الحكومة. ومن ناحية أخرى كان مدحت متمسكا كل التمسك بتطبيق القانون على عبد الكريم ليكون ذلك عبرة لغيره من الشيوخ الذين يفكرون فى التمرد على الحكومة العثمانية.

وبعد وقت قصير وجد عبد الكريم أن بقاءه فى العراق يعرضه لخطر داهم

---

(١) Herbert to Elliot : July 17, 1871, F.O. 195/949.

(٢) حيدر مدحت : تبصره عبرت، ٩٨ ، يعقوب سركيس ، مباحث عراقية ج ٢ ، نبذة ٢٧٧ .

(٣) انظر تفاصيل هذه الحملة فى F.O. 195/949. ومجموعة كبيرة من الوثائق المتعلقة بالحملة موجودة بمكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس على ميكروفيلم . وانظر الفصل الحادى عشر من كتابنا « تاريخ العراق الحديث ».

(٤) Herbert to Elliot, No. 32, July 17, 1871 ; No. 36, August 2. 1871, F.O. 195/949.

فعزم على الرحيل إلى جبل ممر ـ الموطن الأصلى لعشيرته ـ وكان جبل شمر حينذاك تحت حكم آل رشيد . وكان آل رشيد يقدرون تماماً أن الدولة العثمانية عازمة على أن تفرض سيطرتها بقوة على العراق وما جاوره ، ويشاهدون عن كثب تدفق القوات العثمانية على الإحساء (١٨٧١)(١) ، وكذلك مساعى مدحت لإقصاء البيت السعودى عن الحكم فى الإحساء ونجد . ومن ثم كان وقوف آل رشيد بجانب ثورة عبد الكريم أو إيوائهم له قد يعرضهم لنقمة مدحت .

لقد سارع مدحت منذ البداية إلى توجيه تحذير شديد اللهجة إلى آل رشيد طالباً منهم عدم إيواء عبد الكريم إن قدم عليهم . وبهذه الخطوة يكون مدحت قد أحكم الحلقة حول عبد الكريم . ومن سوء حظ عبد الكريم أنه أصيب بجرح أضعف من قدراته على الحركة وأخيراً وقع فى يد ناصر السعدون ـ شيخ عشائر المنتفق ـ الذى لم يتوان عن تسليمه إلى مدحت باشا(٢) .

وتلقى آن بلنت A. Blunt لوماً شديداً على ناصر السعدون لأنه سلم عبد الكريم إلى رجال الحكومة(٣) . والواقع أن عبد الكريم — من وجهة نظر الحكومة — كان مجرد ثائر خطر عليها ، فمن يعاونه أو يخفيه كان سيعرض نفسه للعقوبات الجنائية التى كان مدحت حريصاً على تطبيقها فى مثل هذه الظروف . ولقد كان ناصر السعدون مسئولا عن الأمن فى منطقة المنتفق ، ومسئولا عن التعاون مع الحكومة . ومن ثم فإن ناصر السعدون قام بواجبه فى هذا الصدد . ولكن للموضوع وجه آخر . وهو أن العرب اشتهروا بحماية بنى جلدتهم من رجال الحكومة الأتراك . والحق ، لقد كان الوقت عبارة عن فترة انتقال من الولاء للفكر العثمانى إلى الولاء للفكر العربى . وفترات الانتقال تكون عادة مليئة بالمتناقضات . فلقد كان ناصر السعدون بين نارين : هل يحكم العاطفة ورابطة الدم أم القانون التركى ؟

---

(١) Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, vol. I, Part I, p. 1129.

(٢) A. Blunt : Bedouin Tribes. vol. I, pp. 122-123.

(٣) Ibid

وكان قراره هو تسليم عبد الكريم إلى الحكومة لأنه كان مسئولا أمامها ، وقد يعرض عشائر المنتفق لمتاعب قاسية إن هو عارض سياسة الحكومة .

بعد أن تسلمت الحكومة في بغداد عبد الكريم عقدت له محاكمة رسمية وأجريت مراسيمها تحت إشراف وتوجيه مدحت حتى صدر حكم الإعدام على عبد الكريم . ثم تقرر ترحيله إلى الآستانة ولكنه ما أن وصل إلى الموصل حتى جاء التصديق بإعدامه شنقاً ، فنفذ فيه الحكم قرب الموصل في نفس المنطقة التي بدأ منها ثورته(١) .

وإذا كان أمر عبد الكريم قد انتهى على هذه الصورة الدرامية ، فإن أمه عمشة آلت على نفسها أن يستمر أبناؤها في التطلع إلى منصب المشيخة ، وأن يظلوا مخلصين لتقاليد البدو والبادية . وهذا ليس بمستغرب على سيدة — مثل عمشة عاشت معظم حياتها في كفاح متواصل إلى جانب صفوق ثم إلى جانب إبنها عبد الكريم — أن لا تكف عن الكفاح من أجل رفع أحد أبناء صفوق إلى منصب الولاية ولا شك أن فقدها لزوجها صفوق على تلك الصورة الغادرة ثم إعدام إبنها عبد الكريم جعلها أكثر صلابة في مقاومة الترك عن ذى قبل . فقد أخذت أولاد عبد الكريم وكذلك إبنها فارس إلى جبل شمر . وهناك ربتهم تربية بدوية أصيلة وأرضعتهم لبان الكراهية للترك ولفرحان شيخ المشائر .

ولما أصبح فارس بن صفوق فتى من فتيان العرب دفعت به إلى معترك السياسة مطالباً بمشاركة فرحان المشيخة . واستطاع فارس أن يكسب إلى جانبه عدداً من العشائر وبدا كأن جولة جديدة من الصراع الأسرى بين آل محمد على وشك الوقوع . ولكن الحكومة عملت على الوصول إلى تسوية أرضت الطرفين . فقد اتفقت مع « فارس » على إعطائه مرتباً شهرياً في مقابل هدوء المشائر التي تحت يده . وهكذا أخذت أمور العشيرة في الاستقرار . حقيقة وقعت بعض الأحداث إلا أن هذه الأحداث لم ترتفع إلى المستويات العالية التي مرت بنا أيام « مطلق بن محمد » ،

---

(١) حيدر مدحت ، تبصرة عبرت ومرآة حيرت ، استانبول ص ١١٠–١١٣ .

و « صفوق » ، « فرحان » . « وعبد الكريم » ثم أن العراق كان قد دخل في مرحلة جديدة تتسم بالعمل السياسي القائم على الفكر العربي المتطور .

فمنذ أواخر القرن التاسع عشر أصبحت الزعامات العربية العراقية مركزة في جماعات المثقفين من أهل المدن الذين كانوا في نفس الوقت يستمدون كثيراً من قوتهم ضد عشائرهم . وهذه مرحلة من أهم مراحل التاريخ العراقي الحديث .

المراجع

أولا — وثائق غير منشورة

١ — دار الوثائق الأهلية فى عابدين

محفظة ٢٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ — ٢٥٨ .

٢ — Commonwealth Relations Library :

a) India Office Records, Factory Records, Persia and the Persian Gulf, vols. 47, 49, 51, 54.

b) Political and Secret Department Records : Letters from Agents at Bagdad, vol. 13-14.

٣ — Public Record Office :

a) F.O. 78 : 210, 371, 394.

b) F.O. 195 : 803A, 272, 577, 676, 752, 949.

ثانيا — المؤلفات العربية والتركية

١ — جودت باشا :

تاريخ جودت ، جـ ٧ ، مطبعة عثمانية د ، طبع المصدر ، ١٣٠٢ هـ .

٢ — سركيس (يعقوب) :

مباحث عراقية . جزءان ١٩٤٨ .

٣ — سند (عثمان) :

مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالى داود . اختصره أمين بن حسن الحلوانى ، طبع بمبى ١٢٠٤ هـ .

٤ — العزاوى (عباس) :

(ا) تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ، جـ ٥ (١٩٥٣) ، جـ ٦ (١٩٥٤) .

(ب) عشائر العراق ، جـ ١ ، بغداد ١٩٣٧ .

٥ — فائق (سليمان) :

تاريخ بغداد ، بغداد ١٩٦٥ .

٦ — فريزر (جيمس بيلي) :

رحلة فريزر ، ترجمة جعفر الخياط ، الطبعة الأولى ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٤ .

٧ — قرالي (بولس) :

فخر الدين المعنى الثاني ودولة تسكانيا ١٦٠٥ — ١٦٣٥ .

روميه ، مجمع العلوم والفنون الملكى الإيطالى ١٩٣٨ ، الجزء الثانى .

٨ — الكركوكى (رسول)

دوحة الوزراء فى تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله عن التركية موسى كاظم نورس . دار الكاتب العربى بيروت .

٩ — لونكريك (هـ) :

أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، الطبعة الثالثة بغداد ١٩٦٢ .

١٠ — مدحت (حيدر)

تبصره عبرت ومرآة حيرت . استنبول

١١ — نوار (عبد العزيز)

(أ) تاريخ العراق الحديث . دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨ (المكتبة العربية) .

(ب) داود باشا وإلى بغداد : دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨ (المكتبة العربية) .

ثالثا — المؤلفات الأوربية

1. Ainsworth, W.F. :
A Personal Narrative of the Euphrates Expedition (2 vols.), London, 1888.

2. Blunt, Ann :
Bedouin Tribes of the Euphrates, 2 vols., London, 1879.

3. Chesney, F.R. :
Narrative of the Euphrates Expedition, Carried on By Order of the British Government during the Years 1835, 1836, 1837, London, 1868.

4. Groves, A.N. :
Journal of a Residence at Bagdad during the years 1830-1831, London, 1832.

5. Hoskins, H.L. :
British Routes to India, London, 1928.

6. Jones, J.F. :
Selections from the Records of the Bombay Government, No. XLIII, Memoirs, Bombay, 1857.

7. Layard, H. :
a) Nineveh and its Remains. With an Account of a Visit to Chaldaean Christians of Kurdistan, London, 1849, 2 vols.
b) Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, London, 1853.

8. Lorimer J.G. :
Gazetteer of the Persian Gulf, vol. 1, Parts 1-11, Culcutta, Superintendent Government Printing, India, 1908.

9. Ross, H.J. :
Letters from the East 1837-1857. Edited by his wife, London, 1902.

10. Saldanha, J. :
Precis of Turkish Arabia, 1904, (India Office Library).

11. Walpole, R.N. :
The Ansayri or Assassins. Travels in the further East in 1850-1851. Including a Visit to Nineveh, London, 1851.